مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (٨)، العدد (٤)، ص ص ١٣٠٥-١٤٠٠، (شوال ١٤٣٦هـ/يوليو ٢٠١٥م)

منهج القرآن الكريم في توجيه الصحابة

د. مشرف بن أحمد جمعان الزهراني
أستاذ مشارك، جامعة سطام بن عبد العزيز
كلية التربية، قسم الدراسات الإسلامية
القرآن وعلومه

ملخص البحث. تحت عنوان: (منهج القرآن الكريم في توجيه الصحابة) رغبت أن أجمع الخير من أطرافه، فالقرآن الكريم – إلى جانب أنه كتاب هداية ونور — نبع دائم الفيض، لا ينضب ولا يغيض، والصحابة غرة جبين الأمة، لذا حرصت على معرفة خصوصية الصحابة رضوان الله تعالى عليهم، من خلال التعرف على معالم المنهج القرآني في توجيههم، وبعد الوقوف على ثمار تلك التربية عليهم أولاً ثم على من يتأسى بهم. وأعتقد أن المباحث هنا قد وفّت إلى حد كبير بذلك:

فالمبحث الأول (اهتمام القرآن الكريم بالصحابة) عُني ببيان علو شأنهم، وثناء الله تعالى عليهم، وأمره نبيه عليه الصلاة والسلام بالاهتمام بهم، مع إلماحة عن التوجيهات العامة والخاصة لهم رضوان الله عليهم.

أما المبحث الثاني (أهم جوانب التوجيه القرآني للصحابة) فأفضت الحديث فيه عن التوجيهات العقدية والفقهية التشريعية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية والعسكرية.

وطَوَّف المبحث الثالث في (أساليب التوجيه القرآني للصحابة) مثل: التعليم وبيان الخطأ، والحث والتشجيع، والتنفير من أفعال الكفار والمنافقين، والعِتاب، ومخاطبة العقل والعاطفة.

ثم الخاتمة التي ضمنتها خلاصة رأيي، وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها:

١-أهمية إجلال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وإكرامهم، والذبّ عنهم، وصيانة مكانتهم، ذلك أن التوجيهات الربانية لهم كونت منهم قامات شامخة راسخة الإيمان قَدِرت على تحمل الأمانة، ثم على إيصالها بأمانة وإتقان، فلهم الفضل بذلك بعد رسول الله ﷺ.

٢-ضرورة إبراز تلك التوجيهات الخاصة ومن ثَمّ التأدب بها، لأنها كما أثّرت إيجابًا في الصحابة رضوان الله عليهم؛ فسيكون لها ذات الأثر أو قريبًا منه على كل مؤمن حريص على التأسي بهم والسير على منوالهم.

٣-التوجيهات التي قصد بها الصحابة أولاً تنبهنا إلى الجانب الخطّاء في بني آدم، بِحُكْم البشرية من جهة، وانتفاء العصمة عنهم من جهة أخرى، ومع ذلك نراهم طبقوا الشريعة بحذافيرها حتى بعد وفاة النبي ﷺ وبخاصة إبان الخلافة الراشدة، الأمر الذي يبرهن – بما لا يدع مجالاً للشك- على أن التطبيق الكامل للشريعة ممكن إذا صدقت الإرادة وحَسُن التوجّه، وهذا أحد مكامن صلاح الشريعة لكل زمان ومكان.

المقدمة

الحمد لله العلي القدير، أنزل القرآن هدىً ونورًا وبصائر وذكرى وتثبيتًا وتقويمًا، فهو شفاء ورحمة لأهل الإيمان، وحجة وبرهان على أهل الضلالة والخسران.

فقد حظي صحابة النبي صلى الله عليه وسلم بالنصيب الأوفر من هدي القرآن الكريم لأنهم جيل القيادة والريادة للأمة بأكملها، ولما اختص الله تعالى قلوبهم به من لين للحق وسكينة إليه واطمئنان به، ومن ثم كانت التوجيهات القرآنية للصحابة خاصة جديرة بالدراسة لذا كثرت الدراسات - وحق لها أن تكثر – حول توجيهات القرآن الكريم للأمة عامة، إلا أن جيل القيادة بما يحمله من تبعات خاصة يحتاج إلى دراسة معالم التوجيهات القرآنية له بحيث يتم إبراز تلك الخصوصية دونما عزلٍ له عن مجموع الأمة وإنما تمييزه بأولية التشكيل باعتباره طليعة الجند وغرة جبين الأمة، ولهذا اخترت دراسة هذه التوجيهات إيمانًا مني بأنه لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، واقتناعًا بأن طبقة الصحابة كانت – وستظل – هي المنارة الأولى ومحور القدوة لكل الأجيال. فالدارسة تنصب على هذه التوجيهات الخاصة لصحابة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهي التي صرح فيها أو ألمح إلى أنها موجهة إلى أعيان الصحابة بقرائن السياق أو سبب النزول دونما إغفال لاعتبار العمومية في الخطاب القرآني للصحابة رضي الله عنهم ولغيرهم من أفراد الأمة، إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو مقرر في علم الأصول، فالمراد الألفاظ وليس خصوص الأسباب[1]، ومن ثم تولى الباحث تقسيم هذه التوجيهات وإبراز مقاصدها وآثارها من خلال مباحث ثلاثة:

---

(١) انظر: الفروق (١/١١٤) وقد أصل فيه القرافي لهذه المسألة بالتفصيل وأورد لذلك عشرة أمثلة. والأشباه والنظائر (٢/١٣٤). وأصل لهذه القاعدة من المعاصرين الدكتور عماد الدين رشيد في كتابه (أسباب النزول وأثرها في بيان النصوص) ص ٣٩٣-٤١٥.

الأول: اهتمام القرآن الكريم بالصحابة.

الثاني: أهم جوانب توجيه القرآن للصحابة.

الثالث: أساليب التوجيه القرآني للصحابة.

وقد نحى البحث نحو الإيجاز الذي لا يفرط في اقتناص الفوائد المتعلقة بالموضوع، مستهديًا – بعد آيات القرآن الكريم – بصحيح السيرة ومنتقى التفسير وأسباب النزول لتكون معلوماته أوثق ونتائجه أدق، راجيًا من الله تعالى أن يوفقنا إلى بلوغ المقصد ليأتي البحث على النحو المناسب والماتع، وليكون إضافة نافعة للثقافة والمكتبة الإسلامية.

أهمية البحث

الصحابة الكرام هم كوكبة هذه الأمة، الذين اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وكثيرًا ما دار بِخَلَدي التفكير في شؤونهم وأحوالهم. وحيث إن الله تعالى أكرمني بالاختصاص في الدراسات القرآنية، ارتأيت إعداد دراسة موجزة من خلال القرآن الكريم عن هذه الكوكبة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين. وأخذت في المطالعة والتنقيب فظهرت لي مسائل جليلة تختص بهم دون غيرهم، فهم العضد المتين الذين تحملوا مشاق تلقي الدعوة ابتداءً، ثم مناصرتها وتأييدها، ثم استيعابها وتعلمها ونشرها كاملة كما تلقوها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتيقنت أنهم حظو بنوع من العناية فريد لا يتوفر لأحد غيرهم، وأعطتهم مكنة نادرة جعلتهم هداة ومربين خلال الفترة الراشدة، بل طوال مدة بقائهم الذي اسْتُوْفِيَ في تمام السنة العاشرة بعد المائة للهجرة. فأيقنت أن بحثًا تحت عنوان: (منهج القرآن الكريم في

توجيه الصحابة) وافر الثمرة، وجليل الفائدة، فكان هذا البحث الذي يجده القارئ الكريم بين يديه بفضل من الله تعالى وتوفيقه.

سبب الاختيار

تفيُّؤًا لظلال الأهمية الآنفة، وللأثر الجليل الذي خلّفه الصحابة الكرام في هذه الأمة؛ فإن هنالك دوافع أخرى حدت بي لاختيار هذا البحث منها: الحاجة المتجددة لدراسة منهج القرآن الكريم في التوجيه والإعداد على نحو عام. بالإضافة إلى تتبع التوجيهات القرآنية واضحة الخصوصية بالصحابة رضوان الله عليهم. إلى جانب بيان الآثار الإيجابية للتوجيهات القرآنية الكريمة على جيل الصحابة ثم على من جاء بعدهم. مع مراعاة توضيح مكانة الصحابة على نحو يحافظ على خصوصيتهم دون أن يمايز بينهم وبين الأمة.

الدراسات السابقة

لما شرعت في تقليب المصادر العلمية اجتهدت في التعرف على المؤلفات التي اختصت بالصحابة وهي وافرة كما هو ظاهر، ومنها ما هو قديم وحديث، ومما وقفتُ عليه وكان قريبًا من موضوع البحث:

١ -كتاب (صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في الكتاب والسنة) لعيادة أيوب الكبيسي، نشرته دار القلم عام ١٤٠٧هـ، وهو كتاب رائق، فيه جهد بيّن، عرف فيه بالصحابة، وتحدث عن فضلهم والتفاضل بينهم وعدالتهم... وغير ذلك، وكان أقرب عناوينه إلى موضوع بحثي هو (ما ورد في كتاب الله من فضل الصحابة) حيث وجدت فيه إلماحات مفيدة ضمن سياق مغاير للسياق الذي أبحث فيه.

٢ -كتاب (فضائل الصحابة في القرآن)، نشرته مكتبة الصحابة، وأصله رسالة ماجستير أعدها الأستاذ سعيد أحمد هاشم، وقد وجدت في بعض عناوينه الداخلية تقاطعًا مع الموضوعات المطروقة في بحثي إلا أنها في مساق الفضائل، بينما مسائل بحثي في مساق التوجيهات والإعداد.

وأود الإشارة إلى أن النتاج العلمي الخاص بالصحابة رضوان الله عليهم كبير ووافر كما هو معلوم، إلا أني لم أجد – في حدود علمي وجهدي - مصدرًا تخصص في هذا العنوان على وجه التحديد. ومع ذلك حرصت على الإفادة من كل المصادر التي أمكنني الوصول إليها رغبة في إثراء الموضوع واستيفاء مسائله.

مصطلحات البحث

أبرز مصطلحات البحث ثلاثة هي:

أ) **الصحابي**: وللعلماء أقوال متعددة في تعريفه، ومما أثر عنهم في ذلك:

تعريف ابن كثير رحمه الله، قال: «من رأى رسول الله ﷺ وإن لم تطل صحبته وإن لم يرو عنه شيئًا»[٢].

وعرف ابن الصلاح الصحابي بأنه «كل مسلم رأى النبي ﷺ»[٣].

وقال ابن حجر في تعريفه: «هُوَ مَنْ لَقِيَ النَّبِيَّ ﷺ مُؤْمِنًا بِهِ، وَمَاتَ عَلَى الْإِسْلَامِ، وَلَوْ تَخَلَّلَتْ رِدَّةٌ فِي الْأَصَحِّ»[٤].

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث (ص ١٦٣).

(٣) علوم الحديث (ص ٢٩٣).

(٤) نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر – ملحق بسبل السلام - (٤/ ٧٢٤).

وقوله (في الأصح) ينبه إلى خلاف بين العلماء في بقاء سمة الصحبة لمن ارتد ثم أسلم كالأشعث ابن قيس، فابن حجر هنا يرجح بقاء وصف الصحبة، وعلة ذلك أن الأعمال لا تبطل إلا بالموت على الكفر.

وذهب طائفة أخرى من العلماء إلى زوال وصف الصحبة عنه، لأن الردة تحبط العمل، ورجح أبو الحسن القاري ذلك[٥].

ب) سبب النزول: ومن التعريفات الواردة فيه:

قول الجلال السيوطي: «هو ما نزلت الآية أيام وقوعه»[٦].

وقول الزرقاني: «هو ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه»[٧]. وهذا أتم من تعريف السيوطي لاحتوائه حدودًا ترسم معالم هذا الاصطلاح الاصطلاح بدقة.

ج) المنهج:

اجتهد علماء البحث العلمي في وضع تعاريف للمنهج، وكان من أبرز من تصدى لذلك:

١ -الدكتور علي سامي النشار الذي عرف المنهج بأنه: «طريق البحث عن الحقيقة في أي علم من العلوم، أو في أي نطاق من نطاقات المعرفة الإنسانية»[٨].

٢ -الدكتور عبد الرحمن بدوي، وقد عرف المنهج بأنه «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم بواسطة طائفة من القواعد التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[٩].

---

(٥) شرح نخبة الفكر (١ / ٥٧٥-٥٧٦).

(٦) لباب النقول (ص ٤).

(٧) مناهل العرفان (١ / ١٠٦).

(٨) نشأة الفكر الفلسفي عند المسلمين (ص ٧).

وتعريف الدكتور بدوي أوعب من تعريف النشار لأنه تضمنه، وزاد عليه القواعد المنظمة للمنهج.

ومن خلال هذين التعريفين يمكن أن نخلص إلى أن المراد بالمنهج في هذه الدراسة هو الطريقة التي رسمها القرآن الكريم في توجيه وتعليم الصحابة رضوان الله عليهم.

منهج البحث

انتهجت الدراسة المنهج الوصفي والمنهج التحليلي لأنهما الأكثر ملائمة لفكرة البحث وموضوعاته، ولربما يلحظ القارئ الكريم تداخل هذين المنهجين إبان طرح الموضوعات ومعالجتها، فهذا أمر بدهي في البحث العلمي.

التمهيد

لقد أكمل الله تعالى لهذه الأمة الدين وأتم عليها النعمة ورضي لها الإسلام دينا ومحمدًا صلى الله عليه وسلم نبيًا ورضي لنبيه الكريم صحابة هم خير من أقلت الأرض بعد الأنبياء فذكرهم في الكتب السابقة بأحسن وصف وأرفع تمثيل وأخبر عن رضاه عنهم في غير آية من كتابه الكريم ولما كان لصحابة النبي صلى الله عليه وسلم هذا القدر العظيم فهم حملة هذا الدين وناصرو هذا النبي، ومعلمو هذه الأمة، اتجهت عناية القرآن الكريم بتعليمهم وتربيتهم، ليكون جيلهم جيلاً ربانيًا قادرًا على حمل أمانة التبليغ والتعليم والنصرة والمؤازرة، فلا يخلو موقف جماعي أو فردي يحتاج إلى توجيه وإرشاد إلا نزل القرآن الكريم بذلك صقلاً لهذه النفوس وإعدادًا لهذه القلوب التي هي طليعة النور المبارك للبشرية.

---

(٩) مناهج البحث العلمي (ص ٥).

وقد تعددت مناحي التوجيهات القرآنية للصحابة الكرام، فهي تبني العقيدة الصحيحة وتلفت إلى ما يخالفها من تصرفات، وتتجه إلى تعليمهم أحكام الإسلام ومعالم الحلال والحرام، وتركز على الجوانب الأخلاقية والاجتماعية، ولا تغفل عن الميدان السياسي والعسكري، وبهذا تتحقق لهذه التوجيهاتِ الشموليةُ والتكاملُ في مجالات حياة الصحابة، فتتحول داخلهم إلى طاقة متتامة المورد متنامية العطاء، وإذا كان البحث يرتكز على توجيهات القرآن الكريم للصحابة رضي الله عنهم وخصائصها المميزة وأثرها التربوي في واقعهم العملي، فإن هذا - في الحقيقة – فرع على اهتمامه بالصحابة اهتمامًا عامًا وتعاهده إياهم تعاهدا شاملاً، وهو ما سيتجلى في المبحث التالي:

المبحث الأول: اهتمام القرآن الكريم بالصحابة

لما كان صحابة النبي ﷺ هم نواة الأمة المسلمة العظيمة وبذرة المجتمع الإسلامي الكبير، فلا يستغرب اهتمام القرآن الكريم بهم اهتمام الزارع بزرعه يتعاهده بكل ألوان الرعاية ومن هنا تمثل الاهتمام القرآني بالصحابة في مظاهر عدة، نلخص أهمها فيما يلي:

أولاً: ذكرهم وإعلاء شأنهم

فصورة الصحابة في القرآن الكريم صورة مشرقة؛ إذ ذكرهم الله عز وجل مقترنين بعلو الشأن ورفعة الذكر، ولعل من أوضح الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ [الفتح: ٢٩]، ففي هذه الآية وصف مفصل لأهم الصفات التي يتميز بها صحابة النبي ﷺ متضمنة أيضًا علامات التقوى والإخلاص فيهم، والذي تتميز به هذه الآية الكريمة ما يلي:

١ -أنها قرنت بين صحابة النبي ﷺ وبين نبيهم قران عطف «والخبر عنه وعنهم قوله تعالى: ﴿أَشِدَّآءُ﴾»[١٠].

٢ -أنها جمعت أهم صفات التكامل النفسي في شخصية الصحابة رضوان الله عليهم، فهناك توازن بين جانب الشدة وجانب اللين إذ يتجلى كل جانب منهما في موضعه فهم أشداء على الكفار رحماء بينهم "وفي الجمع لهم بين هاتين الخلتين المتضادتين -الشدة والرحمة - إيماء إلى أصالة آرائهم وحكمة عقولهم، وأنهم يتصرفون في أخلاقهم وأعمالهم تصرف الحكمة والرشد فلا تغلب على نفوسهم محمدة على أخرى ولا يندفعون إلى العمل بالجبلة وعدم الرويَّة"[١١].

كما أن هناك تكاملاً بين هذا الجانب العملي في ميدان الحياة، وبين الجانب العبادي، يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ﴾، فإذا كان صدر الآية يذكر سيرتهم في ميادين الحياة، فإن هذا الجزء يصف الجانب العبادي الخاص بينهم وبين الله عز وجل فهم دائبون على الصلاة آناء الليل وأطراف النهار وقد أشار إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾ وهو عام ليس خاصًا بالنبي ﷺ أو غيره " أُخرج مخرج الخطاب تقديره أيها

(١٠) روح المعاني (٢٦ / ٣٨٥). وانظر: نظم الدرر (٧ / ٢١٥).
(١١) التحرير والتنوير (٢٦ / ٢٠٥).

السامع كائنًا من كان، كما قلنا إن الواعظ يقول: انتبه قبل أن يقع الانتباه، ولا يريد به واحدًا بعينه"[١٢].

فالمقصود بيان استمرارهم على هذه الحال وتميزهم بها حتى إن من قصد أن يراهم أو يعرف أخبارهم فلن يجد من حالهم إلا هذا.

٣ -أنها ركزت الاهتمام بهذه الصفات، فجعلتها صفات مخبرًا بها في الكتب السابقة، فهو مثلهم الذي ضربه الله لهم في التوراة والإنجيل. وفي هذا إعلاء لشأنهم وتنويه بذكرهم في الأمم السابقة كأنه يباهيهم بهم، فقد نقل ابن كثير عن مالك بن أنس أنه قال: "بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة رضي الله عنهم الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا"[١٣]، قال ابن كثير: "وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ، وقد نوه الله تعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة"[١٤].

والراجح في أقوال المفسرين أنهما مثلان: مثل في التوراة ومثل في الإنجيل، وهو الذي قرره ابن جرير وهو قول ابن عباس وقتادة والضحاك وجماعة من السلف، وقال مجاهد: "إن المثلين كليهما في التوراة والإنجيل"[١٥] قال ابن جرير: "وأولى القولين في ذلك بالصواب قول من قال مثلهم في التوراة غير مثلهم في الإنجيل"[١٦].

ويلاحظ أن مثل التوراة أكثر ميلاً إلى تقرير الصفات، ومثل الإنجيل أكثر ميلاً إلى تصويرها وتمثلها، فمثل التوراة يذكر هذه الصفات المتمثلة في الشدة على الكفار

---

(١٢) التفسير الكبير (٩٣/٢٨)
(١٣) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٣١٣)
(١٤) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٣١٣)
(١٥) جامع البيان (٣٢٦/٤ - ٣٢٩)
(١٦) جامع البيان (٢١ / ٣٢٩)

والتراحم بينهم وكثرة العبادة ابتغاء مرضاة الله عز وجل وظهور أثر هذه العبادة عليهم، أما مثل الإنجيل فيجنح إلى التصوير، فهو بمنزلة التشبيه التمثيلي الذي يمثلهم في حالاتهم المختلفة بزرع نما وقوي واشتد مستويًا لا معوجًا محنيًا ولكن مستقيمًا قويًا وذلك لأن "أصحاب محمد ﷺ يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون، كزرع أخرج فراخه التي تتفرع على جانبيه كما يشاهد في الحنطة وغيرها فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ ويستقيم على أصوله، فيعجب به الزراع لقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره"(١٧).

والتنويه بقدر الصحابة كثير في القرآن الكريم وسيأتي بعضه في ثنايا البحث وسنكتفي بإيراد آية أخرى فيها من إعلاء ذكر الصحابة إشارات قوية وعبارات واضحة، وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤]، ففي هذه الآية إعلاء لشأن الصحابة من وجوه:

أ) أنه جمع بين المهاجرين والأنصار ذاكرًا الصفة الغالبة على كلٍ من الطائفتين المميزة لها، فالصفة الغالبة على المهاجرين هي أنهم هاجروا في سبيل الله وتركوا أهلهم وديارهم وأموالهم وانخلعوا منها ابتغاء مرضاة الله، والصفة المميزة للأنصار هي أنهم آووا هؤلاء الفارين بدينهم التاركين لوطنهم وأهليهم وأموالهم إيواءً حسنًا ونصروهم على من أخرجوهم.

ب) أنه أعاد في هذه الآية تلك الصفات التي ذكرها آنفًا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ ﴾ [الأنفال: ٧٢]، قال الرازي: "وبيانه من وجهين: الأول: أن

(١٧) تفسير المراغي (٢٦ / ١١٦)

الإعادة تدل على مزيد الاهتمام بحالهم وذلك يدل على الشرف العظيم، الثاني: وهو أنه تعالى أثنى عليهم ها هنا من ثلاثة أوجه: أولها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ يفيد الحصر، وقوله: ﴿حَقًّا﴾ يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين في طريق الدين. . . وثانيها: قوله ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ﴾، وتنكير لفظ المغفرة يدل على الكمال. . . وثالثها: قوله ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه الثواب الرفيع الشريف"[١٨].

وهذا التفريق بين المقامين يميز بين الصفات التي ذكرت للصحابة على سبيل إثباتها لهم متعلقة بحكم شرعي يجري عليهم كالولاية في الميراث على ما ذكره المفسرون في الآية الأولى، وبين الصفات التي أثبتها الله عز وجل لهم على سبيل إعلاء شأنهم ورفع ذكرهم والتنويه بقدرهم.

فهناك فرق بين مجرد الثناء عليهم بصفات معينة وهو الذي سيأتي في المطلب القادم وبين الثناء عليهم في سياق إعلاء شأنهم ورفع ذكرهم كما مضى في الآيات السابقة.

ثانيًا: الثناء عليهم وعلى أعمالهم وأخلاقهم:

حسب الصحابة شرفًا أنهم اختيروا لصحبة رسول الله ﷺ، ولا شك أن هذا الاختيار الرباني يدل على تميز هؤلاء الصحابة بصفات عالية تجعلهم في المصفة الأولى والمرتبة العليا، حتى عبر النبي ﷺ عن ذلك بقوله "خيركم قرني"[١٩]، ولا شك أن

---

(١٨) التفسير الكبير (١٥ / ١٦٩)

(١٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب لاَ يَشْهَدُ عَلَى شَهَادَةِ جَوْرٍ إِذَا أُشْهِدَ، حديث ٢٦٥١.

الزمان يكتسب خيريته بمن فيه من الناس وما فيه من الأعمال حتى ذهب كثير من أهل العلم إلى أن القرن "هم الأمة المتعاصرون في الزمن الواحد"(٢٠).

وقد أثنى القرآن الكريم على أخلاق الصحابة وأعمالهم في مواطن كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر ٨ -٩].

والآية تصفهم بأنهم يبتغون فضل الله عز وجل في تحمل الأذى، وفي الهجرة إلى الله سبحانه وتعالى، ثم بنصرهم لله عز وجل ولرسوله، ثم بصدقهم في إيمانهم "أي هؤلاء الذين صدَّقوا قولهم بفعلهم"(٢١). وأما الأنصار فتصفهم بما يتوافق مع دورهم؛ فهم الذين "سكنوا دار الهجرة من قبل المهاجرين وآمنوا قبل كثير منهم"(٢٢)، فوصفهم الله عز وجل بهذا وبأنهم أحبوا من هاجر إليهم "يحبون من هاجر إليهم ويستقبلونه بصدور رحبة ويؤثرون غيرهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة"(٢٣).

ونخلص مما سبق أيضًا إلى أن القرآن الكريم قد اهتم بصحابة النبي ﷺ إعلاءً لشأنهم وتزكيةً لهم وثناءً عليهم وعلى أعمالهم وأخلاقهم، ولا غرو فهم عدّة النصر، ومفتتح طريق الدعوة الطويل الذي كتب الله له أن يستمر إلى أن يأتي أمره

(٢٠) تفسير القرآن العظيم (٣ / ٥١٠)
(٢١) تفسير القرآن العظيم (٢٢ / ٥٢٣)
(٢٢) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٥٢٦)
(٢٣) أضواء البيان (٨ / ٧٠)

سبحانه كما في الحديث الصحيح: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ"[٢٤].

فبداية هذا الطريق هم صحابة النبي ﷺ ولذلك كان إعدادهم هو مفتاح النصر لله ولرسوله ولدعوة الحق، وقد امتن الله تعالى بهم على نبيه ﷺ إذ يقول: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال٦٢]، والمقصود بهؤلاء المخادعين هم الكفار وإن روي عن مجاهد أنها نزلت في بني قريظة، قال ابن كثير: "وهذا فيه نظر لأن السياق كله في وقعة بدر وذكرها مكتنف لهذا كله"[٢٥].

فهؤلاء الذين تُخاف خيانتهم وخداعهم قد جعل الله عز وجل التأييد لنبيه ﷺ عليهم بنصره وبالمؤمنين، والمؤمنون عدّة هذا النصر لا محالة "فإن المؤمنين هم جنود الله الذين قد نصر النبي ﷺ بهم كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ فكان في ذكر عناية الله بإصلاح نفوسهم وإذهاب خواطر الشيطان عنهم وإلهامهم إلى الحق في ثبات عزمهم، وقُرارةِ إيمانهم تكوينٌ لأسباب نصر النبي ﷺ والفتح الموعود به ليندفعوا حين يستنفرهم إلى العدو بقلوب ثابتة"[٢٦].

ومن هنا كانت عناية النبي ﷺ بالصحابة — تربيةً وتهذيبًا وإعدادًا لمهام الدعوة والجهاد في سبيل الله عز وجل - مستمدة من العناية الربانية بهم توجيهًا وتزكيةً وإعدادًا.

---

(٢٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب قَوْلِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَالَفَهُمْ»، حديث ١٧٠ - (١٩٢٠). والحديث عند غيره.

(٢٥) تفسير القرآن العظيم (٥٠٦/٢).

(٢٦) التحرير والتنوير (١٤٩/٢٦)

وقد بذل النبي ﷺ في إبلاغ صحابته التوجيهات الربانية وتبيينها لهم ثم تربيتهم عليها تربية عملية بذل في ذلك قصارى جهده حتى أدى الأمانة التي عليه في هذا الأمر خير أداء.

ثالثا: أمره تعالى النبي ﷺ الاهتمام بهم:

لقد كان هذا الاهتمام النبوي الكريم بالصحابة الأجلاء استجابة لأمر الله تعالى بالاهتمام بهم وقد جاء القرآن معرفًا بهذا الدور النبوي في التوجيه العام والخاص إشارةً وتصريحًا في غير موضع من كتاب الله عز وجل، كقوله تعالى إشارة إلى هذا الدور ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة١٢٨]، فهذه إشارة إلى أمرين:

الأول: حرص النبي ﷺ على هداية قومه.

الثاني: رأفته بالمؤمنين ومنها حرصه على تعليمهم وتزكيتهم، وهذان الأمران كانا محور اهتمام النبي ﷺ طيلة حياته، إلا أن الموازنة القرآنية تضع الاهتمام بصحابة النبي ﷺ في الدرجة الأولى لأنهم الذخيرة المدّخرة والعدّة المعدّة، ويظهر ذلك واضحًا في غير آية من كتاب الله عز وجل من ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف٢٨]، قال الطبري: "يقول جل ثناؤه لنبيه ﷺ ولا تصرف عينيك عن هؤلاء الذين أمرتك يا محمد أن تصبر نفسك معهم إلى غيرهم من الكفار... وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل"(٢٧).

(٢٧) جامع البيان (٢٣٧/١٥) والمثبت في التفسير: (عيناك) ولعله على الحكاية.

ومن خلال الآثار التي وردت في ذلك يلاحظ أنه تكاد تجتمع كلمة السلف على هذا المعنى الذي ذكره الطبري[٢٨].

ويتضح من ألفاظ الآية قوة الحث على ملازمة الصحابة وتعليمهم وإن تعارض هذا مع اجتهاد النبي ﷺ في بعض الأحيان أن يقدم مصلحة دخول الناس في الدين على مصلحة توجيه الصحابة في هذا الوقت بالذات، فقد اشتملت على الأمر والنهي والتحذير، فالأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ﴾ والنهي ﴿وَلَا تَعۡدُ﴾ والتحذير ﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ مع مقارنة حال هؤلاء المؤمنين بحال الكافرين مقارنة تستدعي لزومهم وتنفّر من تركهم إلى الكافرين، وقريب من هذه أيضًا توجيهه للنبي ﷺ أن ينحاز إلى فقراء الصحابة وقد طلب منه بعض أشراف العرب أن يجالسهم فيدعوهم إلا أنهم كانوا يستنكفون الجلوس إليه وعنده هؤلاء الفقراء من الصحابة "فسألوه أن يقيمهم عنه إذا حضروا. . . فهمّ رسول الله ﷺ فأنزل الله عليه ﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ "[٢٩]. والواضح أن النبي ﷺ إنما همّ بذلك طمعًا في إيمانهم، دل على ذلك حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: "كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ نَفَرٍ، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اطْرُدْ هَؤُلَاءِ لَا يَجْتَرِئُونَ عَلَيْنَا. قَالَ وَكُنْتُ أَنَا وَابْنُ مَسْعُودٍ، وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ، وَبِلَالٌ، وَرَجُلَانِ لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا، فَوَقَعَ فِي نَفْسِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَقَعَ فَحَدَّثَ نَفْسَهُ فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ"[٣٠]، والمقصود "أن رسول الله ﷺ لحرصه على إيمان عظماء قريش ليكونوا قدوة لقومهم ولعلمه بأن أصحابه يحرصون حرصه

(٢٨) انظر: جامع البيان (٢٣٨/١٥)

(٢٩) جامع البيان (٢٣٩/١٥) والآية في سورة الأنعام: ٥٢.

(٣٠) أخرجه مسلم في صحيحه ١٨٧٨/٤، حديث ٢٤١٣.

ولا يوحشهم أن يقاموا من المجلس إذا حضره عظماء قريش لأنهم آمنوا يريدون وجه الله لا الرياء والسمعة ولكن الله نهاه عن ذلك، وسماه طردًا تأكيدًا لمعنى النهي"[٣١].

وفي هذه الآيات أيضًا تبدو عناصر الاهتمام واضحة وذلك يظهر في بيان صفات هؤلاء الفقراء من الصحابة ثم تحذير النبي ﷺ من عاقبة طردهم وهو أنه ظلم في قوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام٥٢]، قال الأنباري: "عُظّم هذا الأمر على النبي ﷺ، وخُوّف بالدخول في جملة الظالمين لأنه كان قد همّ بتقديم الرؤساء على الضعفاء"[٣٢].

ومن هنا تظهر أهمية التوجيه والتربية لجيل الصحابة حتى جعلت مقدمة على دعوة صناديد قريش وأشراف العرب إذا تعارضت معها، وذلك أن التوجيهات الربانية لصحابة النبي ﷺ كثيرة ومتعددة وتحتاج في بيانها وتربية الصحابة عليها إلى وقت وجهد كما سيتضح في المباحث التالية.

رابعا: توجيه القرآن للصحابة

ويعد القرآن الكريم كله توجيهًا للصحابة، ففيهم نزل باعتبارهم اللبنة الأولى لهذه الأمة، وقد علمه النبي ﷺ لأصحابه ورباهم عليه تربية قدوة لأنه كان خلقه القرآن، وتربية توجيه ومتابعة لأنه إمامهم والإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، ولأن مسؤولية تزكية أصحابه مقرونة بمسؤولية البلاغ كما سبقت الإشارة إليه، إلا أن الآيات التي تتجه لها الدراسة في هذا البحث المختصر هي الآيات التي دلت القرائن الواضحة على أن المقصود الأول بها هم أفراد من الصحابة أو جماعات منهم، إذ يظهر فيها مباشرة التوجيه والعلاقة بين الظرف الآني للآية وبين مضمونها، سواءً في

---

(٣١) التحرير والتنوير (٢٤٦/٧)

(٣٢) زاد المسير (٤٧/٣)

ذلك التوجيهات التي تحمل نداءً عامًا مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ مع وجود قرينة تبين نزولها في أشخاص من الصحابة، أو التوجيهات التي ارتبطت بأجواء خاصة ظهرت في سياق الآيات، كالغزوات والمواقف الخاصة لبعض الصحابة التي احتاجت إلى توجيه أو بيان.

١ – التوجيهات العامة:

جاء التوجيه الرباني لآحاد الصحابة في بعض الأحيان يحمل صيغة النداء العام للذين آمنوا إلا أنه احتفّ بالقرائن السياقية أو غيرها من أسباب النزول التي تدل على أنه توجيه لبعض الصحابة بأعيانهم وإن كان هذا لا يسلبه عمومية التوجيه ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات٢]، فعلى الرغم من تصدر الآية بالنداء العام إلا أن رفع الأصوات على النبي ﷺ لم يكن إلا في زمن الصحابة فكان الدرس موجهًا أولاً لصحابة النبي ﷺ بأعيانهم، وقد تلقى الصحابة هذا الدرس واستجابوا له، فقد أخرج البخاري عن عبد الله ابن الزبير رضي الله عنهما "فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه"(٣٣)، كما أخرج الحاكم وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: "والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول الله لا أكلمك إلا كأخي السرار حتى ألقى الله"(٣٤).

وإذا كان المثال السابق تفهم خصوصيته بسياق الآية وألفاظها فإن سبب نزول الآية إذا كان صحيحًا وواضحَ الدلالة على ارتباط الآية به يصلح قرينة لهذا

---

(٣٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾، حديث ٤٨٤٥.

(٣٤) أخرجه الحاكم في المستدرك، كتاب التفسير، سورة الحجرات، حديث ٣٧٧٢.

الاختصاص ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴾ [المائدة١٠١]، فإن مجمل ما روي عن سبب نزولها يجتمع عند أمرين، عبّر عنها الحافظ ابن حجر بقوله: "والحاصل أنها نزلت بسبب كثرة المسائل إما على سبيل الاستهزاء أو الامتحان وإما عن سبيل التعنت عن الشيء الذي لو لم يسأل عنه لكان على الإباحة"(٣٥)، فأما أسئلة الاستهزاء فقد ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أن قومًا كانوا يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً فأنزل الله فيهم هذه الآية(٣٦).

وأما أسئلة التعنت فمن أمثلتها ما رواه قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: "سَأَلُوا النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى أَحْفَوْهُ بِالْمَسْأَلَةِ، فَصَعِدَ النَّبِيُّ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ الْمِنْبَرَ فَقَالَ: لاَ تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُ لَكُمْ... فَأَنْشَأَ رَجُلٌ - كَانَ إِذَا لاَحَى يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ - فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَنْ أَبِي؟ فَقَالَ: أَبُوكَ حُذَافَةُ..." فَكَانَ قَتَادَةُ يَذْكُرُ هَذَا الحَدِيثَ عِنْدَ هَذِهِ الآيَةِ(٣٧)، وفي لفظ عن أنس أيضًا: أن رجلاً قام إليه فقال: أين مدخلي يا رسول الله؟ قال: النار، فقام عبد الله بن حذافة فقال: من أبي يا رسول الله؟ قال: أبوك حذافة)(٣٨)، وفي لفظ أبي هريرة رضي الله عنه عند الطبري: "فقام إليه رجل فقال: أين أنا؟ قال: في النار. فنزلت هذه الآية"(٣٩).

---

(٣٥) فتح الباري ٢٨٢/٨)

(٣٦) انظر: البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾، حديث ٤٦٢٢.

(٣٧) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب التعوذ من الفتن، حديث ٧٠٨٩.

(٣٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ما يكره من كثرة السؤال، حديث ٧٢٩٤.

(٣٩) جامع البيان (١٧/٩).

ومع ارتباط هذه الآية بهذه الخصوصيات لم تفقد عمومية التوجيه فيها قال ابن القيم رحمه الله: (لم ينقطع حكم هذه الآية، بل لا ينبغي للعبد أن يتعرض للسؤال عما إذا ما بدا له ساءه، بل يستخفي ما أمكنه، ويأخذ بعفو الله، ومن هاهنا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "يا صاحب الميزاب لا تخبرنا لما سأله رفيقه عن الماء أطاهر أم لا؟ "[٤٠]، قال القاسمي معقبًا: "وما ذكره من التعميم هو باعتبار ظاهرها، وأما المقصود أولاً وبالذات كما يفيده تتمتها فهو النهي عن السؤال بما يسوء إبداؤه في زمن الوحي"[٤١].

ولعله يقصد بتتمتها قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ ﴾ فهي قرينة لفظية على أن التوجيه موجه إلى أعيان الصحابة لأنه مرتبط بزمن الوحي، فيجتمع بذلك السياق اللفظي وسبب النزول لترجيح أنها نزلت في توجيه الصحابة أنفسهم.

وثمة آيات كان سبب النزول فيها خالصًا هو القرينة التي تدل على خصوصيتها بالصحابة أولاً فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ ﴾ الآية. [النساء ٩٤]، فقد توافرت الروايات عن جماعة من الصحابة منهم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وأبو حدْرد وبعض التابعين أيضًا[٤٢] على أنها نزلت في واقعة عين اختلفت ألفاظ الرواة في التعبير عنها وخلاصتها كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "كَانَ رَجُلٌ فِي غُنَيْمَةٍ لَهُ فَلَحِقَهُ الْمُسْلِمُونَ، فَقَالَ: السَّلاَمُ

(٤٠) الأثر بهذا اللفظ عند ابن رجب في ذيل طبقات الحنابلة (٣٣٢/١) وابن القيم في إعلام الموقعين (٨٠/١) وغيرهما، وأخرجه الإمام مالك في الموطأ (٢٣/١ حديث رقم ١٤) بلفظ: «يَا صَاحِبَ الْحَوْضِ لَا تُخْبِرْنَا، فَإِنَّا نَرِدُ عَلَى السِّبَاعِ، وَتَرِدُ عَلَيْنَا».

(٤١) محاسن التأويل (٦ /٣٨٧)

(٤٢) انظر: جامع البيان (٣٥٤/٧، ٣٥٥، ٣٥٦)

عَلَيْكُمْ، فَقَتَلُوهُ وَأَخَذُوا غُنَيْمَتَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ "[٤٣]، وقد فسرت بعض الروايات إبهام من حيّا بتحية الإسلام ومن قتله، بأن من حيّاهم بتحية الإسلام هو عامر بن الأخبط، وأن الذي قتله هو محلّم بن جثّامة[٤٤] وفسرتها روايات أخرى بغير ذلك، وعمومًا فهي وقائع نزلت الآية في إحداها وتشابهت غيرها معها، أو أنها كانت كلها واقعة واحدة وحدث فيها ذلك كله فنزلت الآية في ذلك.

ومن أمثلة هذا الصنف قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [آل عمران ١١٨]، فإنها نزلت كما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في «رجال من المسلمين كانوا يواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية فأنزل الله عزّ وجلّ فيهم، فنهاهم عن مباطنتهم تخوف الفتنة عليهم منهم»[٤٥]، والتوجيه في الآية أعم من مجرد المجالسة والمؤانسة والمواصلة وإنما يدخل فيها بطريق الأولى الاعتماد عليهم فيما يتعلق بالمصالح العامة للمسلمين لما فيه من خطر على أمنهم، وهذا ما فهمه الصحابة أنفسهم من الآية ثم المفسرون من بعدهم، يقول ابن عطية: "ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستنامة إليهم وروي أن أبا موسى الأشعري رضي الله عنه استكتب ذميًا فكتب إليه عمر يعنّفه وتلا عليه هذه الآية. . ."[٤٦].

---

(٤٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا﴾، حديث ٤٥٩١. ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، حديث ٢٢ – ٣٠٢٥.

(٤٤) جامع البيان (٧ / ٣٥٣ – ٣٥٤)

(٤٥) رواه الطبري في جامع البيان (٥ / ٧٠٩) وانظر: أسباب النزول (ص ٩٦).

(٤٦) المحرر الوجيز (٣٤٧). وأثر عمر مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما؛ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٢/١٧) حديث ٨٩٣٩.

فهذه أمثلة للخطاب القرآني العام الذي تدل القرائن على أنه قصد به أعيان من الصحابة، فكان ذلك سببًا لهذا التوجيه الكريم الذي ظل هدًى لمن بعد الصحابة ممن سار على دربهم، فهو عام في صياغته له خصوصية بسياقه أو بسبب نزوله، وهذه الخصوصية لم تخرجه عن عمومه فظل توجيهًا عامًا يسترشد به المسلمون في كل زمان.

٢ – التوجيهات الخاصة:

وهي التوجيهات التي ارتبطت بحدث من الأحداث وكان هذا الحدث بارزًا في الآيات التي اشتملت عليها، فالفرق بينها وبين الآيات التي ارتبطت بسبب نزول هو أن سبب النزول وحده لم يكن مصرحًا به في الآيات السابقة ولا بارزًا ترتب التوجيهات عليه وإنما استفيد من رواية الرواة له، وأما هذا اللون من التوجيهات فالحدث المرتبط به ظاهر في الآيات صريحة العلاقة بينه وبين التوجيهات المترتبة عليه، وهذا كثير في القرآن الكريم ومن أمثلته:

أ – الغزوات التي واجه فيها الصحابة أحداثًا استدعت التوجيه في كثير من الأحوال كغزوة أحد والأحزاب وحنين وغيرها.

ب – المواقف الخاصة ببعض الصحابة التي ذكرت بجلاء في القرآن الكريم ونتجت عنها توجيهات متعلقة بهؤلاء الصحابة ومستمرة لغيرهم، كحادثة الإفك والتحريم وغيرها.

ج – الإجابات القرآنية على استفتاءات الصحابة رضوان الله عليهم وما تخللها من توجيهات فقهية وإشارات تربوية.

وهذه التوجيهات الخاصة تشارك سابقتها في الأهمية التربوية والمشاركة في البناء المتكامل لشخصية الصحابة، بل ربما كانت أكثر فاعلية وأشد أثرًا وذلك لأن "الحادثة التي تثير النفس بكاملها وترسل فيها قدرًا من حرارة التفاعل والانفعال، يكفي

لصهرها أحيانًا، أو الوصول بها إلى قرب الانصهار، وتلك حالة لا تحدث كل يوم في النفس"[٤٧]، ومن هنا سماها بعض الباحثين التربية بالأحداث لأنها تبنى النفس وهي في حالة تأثر واستجابة لما يراد من توجيهات إيمانية وتهذيبات أخلاقية فتكون أشد تأثرًا بها لارتباطها بحدث عاينته.

ومن الأمثلة على استغلال الحدث في التوجيه بواسطة التعقيب عليه ليكون أشد وقعًا، وأقوم تأثيرًا على النفس، أحداث الغزوات التي زخرت بالتوجيهات القرآنية للصحابة على اختلاف أنواعها، حتى التقط بعض العلماء والباحثين من السيرة النبوية وخصوصًا الغزوات مواطن كثيرة صالحة لتصانيف حول ما سمي بفقه السيرة، وستأتي الأمثلة على ذلك وبيان ما فيها من توجيهات إلا أنني أضرب مثالاً لهذا اللون من التوجيهات الخاصة وهو غزوة الأحزاب التي كانت حاسمة في تاريخ المسلمين لأنهم كانوا كمن هو قائم على قمة جبل إذا اختل توازنه هوى في واد سحيق لا نجاة منه، حيث هجم الأعداء من كل حدب وصوب ولكن الله برحمته وفضله حمى الإسلام ورجعت الطمأنينة إلى النفوس، وظهرت خيبة الأحزاب وزادت صلابة المسلمين، وقال رسول الله ﷺ بعد هذه النتيجة الباهرة "الآن نغزوهم ولا يغزوننا"[٤٨]، وكان ذلك إيذانًا بعهد جديد من التمكين لدين الله وتغيير ميزان القوى لمصلحة المسلمين.

ففي الغزوة ابتلي المؤمنون ابتلاء عظيمًا وزلزلوا زلزالاً شديدًا حتى بلغت القلوب الحناجر، واضطربت الظنون والأوهام، ولم يجر في القرآن الكريم تصوير لهول معركة من المعارك أو موقف من المواقف في حياة المسلمين بمثل هذه الصورة إذ يقول الله

---

(٤٧) منهج التربية الإسلامية (١ / ٢٠٧)

(٤٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، حديث ٤١١٠.

سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٩ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ١٠ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ١١ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب ٩ -١٢]، "إنها صورة الهول الذي روع المدينة والكرب الذي شملها والذي لم ينج منه أحد من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب. . . ومن ثم كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقًا، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسمًا لا تردد فيه"(٤٩).

ولا شك أن هذا الجو الذي ابتلي فيه المؤمنون هذا الابتلاء كان جوًا مناسبًا لسياقة التوجيهات الإلهية للصحابة الكرام، وهي توجيهات كثيرة، مع أن أكثرها كان من قبيل التوجيهات غير المباشرة عن طريق وصف المنافقين ومرضى القلوب على طريقة التنبيه أو التعريض ومع ذلك فلم تخل هذه التوجيهات من توجيه مباشر للمؤمنين ولعله أول توجيه ذكر في سياقة أحداث هذه الغزوة وهو قوله تعالى: ﴿ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴾ إن أول ما نلحظه من هذا التوجيه هو أنه جاء على صيغة الخبر لا الإنشاء وهي طريقة في العتاب الرقيق المؤثر من الله سبحانه وتعالى للمؤمنين لأن "في صيغة المضارع معنى التعجب من ظنونهم لإدماج العتاب بالامتنان، فإن شدة الهلع الذي أزاغ الأبصار وجعل القلوب بمثل حالة أن تبلغ الحناجر دل على أنهم أشفقوا من أن يهزموا لما رأوا من قوة الأحزاب، وضيق الحصار، أو خافوا مدة الحرب وفناء

(٤٩) في ظلال القرآن (٥/ ٢٨٣٧)

الأنفس، أو أشفقوا من أن تكون من الهزيمة جرأة للمشركين على المسلمين أو نحو ذلك من أنواع الظنون وتفاوت درجات أهلها"(٥٠).

وإذا كان القرآن الكريم قد اكتفى هنا بأسلوب المعاتبة الرقيقة التي لم تزد على استخدام الأسلوب الخبري، وإيجاز العبارة وعدم التفصيل فيها، حيث لم تزد هذه الجملة القصيرة "وتظنون بالله الظنونا" أن هذه الجملة كانت محكمة السبك قوية التأثير فهي "تنتقل إلى داخل النفس، وتصف الخواطر والهواجس والظنون، وهذه قصوى مراحل الابتلاء بالنسبة للمؤمنين في هذه الواقعة"(٥١).

لقد توقف المفسرون أمام مجيء الظنون على صيغة الجمع ثم على صيغة الإجمال لا التفصيل، فالمعنى الإجمالي عندهم هو أن المراد المبالغة "يعني تظنون كل ظن، لأن عند الأمر العظيم كل أحد يظن شيئًا "(٥٢)، ومن هنا تضطرب ظنون هذا المجموع من الصحابة على الرغم من توحدهم الظاهري على الإسلام إلا أن في قلب كل منهم ظنًا ما يختلف عن ظن صاحبه.

وكما أن هذه الظنون يمكن أن تقع مضطربة ومختلفة ومتفاوتة من مجموع المؤمنين كما مرّ، ويمكن أن تقع على هذه الصفة أيضًا من كل مؤمن على حدة، فهو لا يدري من شدة الهول ما الذي يتخيله أو يتوقعه من وصف لما يحمله هذا الهول ومن نتيجة له، ويعين على هذه المعاني جميعًا ترك هذه الظنون بغير قيد لا بالوصف ولا بالإضافة فهو "لا يفصّل هذه الظنون ويدعها مجملة، ترسم حالة الاضطراب في المشاعر والخوالج وذهابها كل مذهب"(٥٣).

---

(٥٠) التحرير والتنوير (٢٨١/٢٠)

(٥١) من أسرار التعبير القرآني (ص ١٠٠) د . محمد أبو موسى.

(٥٢) التفسير الكبير (١٧٢/٢٥)

(٥٣) في ظلال القرآن (٢٨٣٧)

وفي هذا توجيه لصحابة النبي ﷺ إلى الثبات في الشدائد، واليقين بنصر الله سبحانه وتعالى، وأن هذه الشدة ما هي إلا بلاء وابتلاء لا بد منه لتمحيص المؤمنين وليس صاعقة لتدمير كيانهم أو لزلزلة أركانهم، ولعل مما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى بعد هذه الآيات بقليل: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب٢٢]، فإن أصحاب القلوب الثابتة أيقنوا أن هذا ابتلاء وُعِدوه من قبل، وأن هذا الابتلاء مقدمة للنصر، قال الطبري: " ولما عاين المؤمنون بالله ورسوله جماعات الكفار، قالوا تسليمًا منهم لأمر الله ورسوله، وإيقانًا منهم بأن ذلك إنجاز وعده لهم الذي وعدهم بقوله: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ [البقـــــرة٢١٤]، : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

وبعد الاستعراض السابق لأهم مواضع التوجيه القرآني للصحابة وهو الذي يعد تمهيدًا لا غنى عنه للولوج إلى أهم جوانب هذا التوجيه القرآني الكريم يحسن أن نقترح تقسيمًا لأهم هذه الجوانب التوجيهية التي احتوت عليها الآيات التي خاطبت الصحابة على الصفة التي قررتها في صدر هذا المبحث، وهي الآيات التي دلت القرائن الواضحة على أن المقصود الأول بها هم أفراد الصحابة أو جماعات منهم، إذ يظهر فيها مباشرة التوجيه، إلى جوار العلاقة بين الظرف الآني للآية وبين مضمونها.

فيحسن تقسيم التوجيهات التي اشتملت عليها هذه الآيات القرآنية إلى:

١ -توجيهات عقدية.

٢ -توجيهات فقهية وتشريعية.

٣ -توجيهات اجتماعية وأخلاقية.

٤ -توجيهات سياسية وعسكرية.

ولا يخفى وجود قدر من التشابه بين هذه الجوانب، وذلك قد يعذرنا في تداخل بعض صور التمثيل والتطبيق في أثناء عرض هذه الجوانب التوجيهية.

المبحث الثاني: أهم جوانب التوجيه القرآني للصحابة

بناء على هذا التقسيم الذي خلص إليه البحث نبدأ في تتبع أهم توجيهات القرآن الكريم للصحابة في كل جانب من هذه الجوانب:

أولاً: التوجيهات العقدية:

ولعل هذا الجانب من أهم جوانب التوجيه في حياة الإنسان لأنه يكفل سلامة القلب التي لا ينفع المرء حين لقاء الله عز وجل إلا هي، قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء ٨٨ -٨٩]، فأصل العقيدة في اللغة مأخوذ من العقد وهو الربط والشد بقوة[٥٤]، فهي إذًا: ما يعقد عليه الإنسان قلبه عقدًا جازمًا ومحكمًا لا يتطرق إليه شك.[٥٥]

ولما كانت العقيدة الصحيحة هي مناط قبول الأعمال وأن النجاة في الآخرة متوقفة عليها، وهي العصمة من الشرك والشك والفتن المضلة والأهواء كان من الطبيعي أن تكون هي بؤرة دعوة الرسل، ومبتدؤها وخلاصتها قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل٣٦].

---

(٥٤) القاموس المحيط (ص ٣٠٠ مادة ع ق د).

(٥٥) انظر: العقيدة في الله (ص: ٧).

وعلى هذا كانت دعوة النبي ﷺ وتربيتُه أصحابه، ولعل من الآيات التي تلفت إلى هذا الأمر آية البيعة باعتبارها باب الإسلام وأول ما يولج به إليه إذ يوجه الله تعالى نبيه بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الممتحنة١٢]، فبدأ بالبيعة على ترك الشرك، وقد كانت هذه البيعة هي محنة النساء لقوله تعالى موجهًا صحابة النبي ﷺ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ الآية، [الممتحنة١٠]، فمن الملاحظ أن المربي عليه الصلاة والسلام بدأ البيعة بقضية الاعتقاد وهو توحيد الله وعدم الشرك به سبحانه، وقرن به دعوتهم إلى الإقلاع والابتعاد عن المعاصي.

وقد جعل القرآن الكريم الإيمان الجازم والعقيدة الصحيحة في الله معيارًا لخيرية الصحابة إذ قال فيهم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران١١٠]، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عن عكرمة ومقاتل وغيرهما أنها نزلت في ابن مسعود وأبي بن كعب وجماعة من المهاجرين(٥٦)، ومن هنا قيل إنها نزلت في المهاجرين حتى روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: "هذه لأولنا ولا تكون لآخرنا"(٥٧) قال ابن عطية: "هذا كله قول واحد مقتضاه أن الآية نزلت في الصحابة. . . فالإشارة بقوله ﴿أُمَّةٍ﴾ إلى أمة معينة فإن هؤلاء هم خيرها"(٥٨)، وقال الشيخ محمد عبده: "هذا الوصف يصدق على

(٥٦) أسباب النزول (ص: ٩٤)

(٥٧) المحرر الوجيز (٣٤٢)

(٥٨) المحرر الوجيز (٣٤٢)

الذين خوطبوا به أولاً وهم النبي ﷺ وأصحابه الذين كانوا معه عليهم الرضوان. . . وهم الذين كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. . . وهم المؤمنون بالله ذلك الإيمان الذي استولى عقولهم وقلوبهم ومشاعرهم حتى كان هو المسير لهم في عامة أحوالهم"[٥٩]، وفي الآية توجيه قوي لصحابة النبي ﷺ إلى التمسك بهذا الإيمان الذي وصفت طبيعته وخصائصه، وهو الإيمان المستولي على القلوب والعقول والمشاعر والذي من شأنه أن يؤثر في الأفعال ويعلي من الهمم حتى جعل المثال الواضح على أثره في خيرية هذه الأمة هو أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر مع ما في هذا الأمر والنهي من مشقة وتبعات، وفي هذا مزيد اعتناء بقوة الإيمان في نفوس هذا الجيل فهو الإيمان الدافع لصاحبه إلى الخير والمعين له على تحمل التبعات في سبيل تحقيق هذا الخير في واقع الحياة.

وإذا كانت أهمية الإيمان وخصائصه التي تميّزه قد أشير إليها في هذه الآية التي سبقت؛ فإن جملة من قضايا الإيمان المهمة خصوصًا ما يتعلق بتوحيد الله سبحانه وتعالى قد كانت موضوعًا لتوجيهات قرآنية لصحابة النبي ﷺ ومنها هذا التوجيه الذي يدعم ركائز التوحيد في النفس ويقضي على أي أثر من آثار الشرك أو شبهة من شبهاته، وهو قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة١٨٦]، فقد ذكر المفسرون أكثر من مناسبة نزلت فيها الآية، حتى أوصلها ابن الجوزي في زاد المسير إلى خمسة أقوال[٦٠] يلاحظ عليها ما يلي:

---

(٥٩) تفسير المنار (٤ / ٥٨)

(٦٠) زاد المسير (١/١٤٥).

١ – ضعف إسناد المناسبات التي تعد سببًا مباشرًا لنزول الآيات، كرواياتهم أن أعرابيًا جاء إلى النبي ﷺ فسأله أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ونحوه[٦١].

٢ – أن هذه المناسبات تدور حول كيفية دعاء الله عز وجل وهو الأمر الواضح من لفظ الآية نفسه، إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ فيكون لفظ الآية واضحًا في إظهار المراد الإلهي الكريم بهذا التوجيه.

وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي ﴾ يدل على أن هذه التساؤلات المتعلقة بكيفية دعاء الله عز وجل كانت تدور في ذهن عباده وهم صحابة النبي ﷺ فربما أبدوها وربما أخفوها، وعلى كلتا الحالتين يعلم الله أهمية بيانها والإجابة الواضحة عليها لأنها من قضايا توحيد العبادة، ولذلك كانت الإجابة ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾.

والظاهر من الآية أنها ترشد إلى قطع الوسائط بين العبد وربه في الدعاء وهذا من أهم مظاهر توحيد العبادة إذ الدعاء "هو العبادة" صح الحديث بذلك عن النبي ﷺ[٦٢]، فإن تصريح القرآن الكريم بأن الله سبحانه قريب وربطها بإجابة الدعاء يشير إلى نفي الوساطة بينه وبين الخلق في هذا الأمر، خصوصًا وأن هذه الوساطة كانت موجودة في عقائد أهل الجاهلية فإنهم عللوا دعاءهم للأصنام وعبادتهم إياها بأنها واسطة تقربهم إلى الله ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر٣]، بل إن بعض العلماء التفت إلى دقيقة من دقائق التعبير في الآية مرتبطة بما سبق تقريره وهي أن "خلو قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ من كلمة ﴿ قل ﴾ – وهي الموضع الوحيد الذي

(٦١) انظر: جامع البيان (٤٨/٣) تحقيق أحمد شاكر.

(٦٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب الدعاء، حديث ١٤٧٩.

لم يصدّر فيه الجواب بها – فللدلالة على رفع الوساطة بين العباد السائلين وبين المسؤول عنه ربهم وخالقهم"[٦٣].

ومن التوجيهات القرآنية للصحابة في جانب العقيدة، التوجيه إلى عمق موالاة المؤمنين والبراءة من الكفار وقد جاء هذا في غير موضع من كتاب الله عز وجل، لعل من أظهرها الآيات التي في صدر سورة الممتحنة والتي تمثل من حيث عددها ثلثي السورة، كما أن سبب نزولها ظاهرٌ ومتفق عليه وهو قصة حاطب بن أبي بلتعة المشهورة عند أهل الحديث والسير[٦٤]، يقول الحافظ ابن كثير بعد ذكر القصة: "فقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ يُخۡرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمۡ أَن تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمۡ إِن كُنتُمۡ خَرَجۡتُمۡ جِهَٰدٗا فِي سَبِيلِي وَٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِيۚ تُسِرُّونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعۡلَمُ بِمَآ أَخۡفَيۡتُمۡ وَمَآ أَعۡلَنتُمۡۚ وَمَن يَفۡعَلۡهُ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [الممتحنة١]، يعني المشركين والكفار الذين هم محاربون لله ولرسوله وللمؤمنين الذين شرع الله عداوتهم ومصارمتهم ونهى أن يتخذوا أولياء وأصدقاء وأخلاء كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [المائدة٥١]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد"[٦٥].

ثم شرع القرآن الكريم يعمق مفهوم البراء وأسبابه معتمدًا على الأمور الظاهرة والتصرفات الواضحة: ﴿ إِن يَثۡقَفُوكُمۡ يَكُونُواْ لَكُمۡ أَعۡدَآءٗ وَيَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ وَأَلۡسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ

---

(٦٣) تفسير شلتوت (٥٤٣ – ٥٤٤).

(٦٤) انظر: البخاري في صحيحه (٥ / ١٤٥)، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، حديث ٤٢٧٤. والقصة مخرجة في عدد من كتب السنة والتفسير وأسباب النزول.

(٦٥) تفسير القرآن العظيم (٤ / ٥٤١)

وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ ﴾ [الممتحنة٢]، وهو هنا أيضًا يعتمد على ما تكنه نفوس المؤمنين من إيمان بعلم الله سبحانه وتعالى بسرائر هؤلاء القوم ودخائل نفوسهم نفيًا لشبهة أن تكون موالاتهم من قبيل الدهاء والحزم "رجاء نفعهم إن دالت لهم الدولة، فبين الله لهم خطأ هذا الظن وأنهم إن استفادوا من مودتهم إياهم إطلاعًا على قوتهم فتأهبوا لهم وظفروا بهم لم يكونوا ليرقبوا فيهم إلاً ولا ذمة"(٦٦).

وقد أجمل القرآن الكريم وصف من يُحذر من الولاء لهم في قوله تعالى: ﴿ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ ﴾ فوصفهم وصفًا موجزًا هو قوله ﴿ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ ﴾ وهذا الوصف الموجز فيه "إبراز صورة الحال وتقبيح الفعل لأن العداوة تتنافى مع الموالاة والمسارّة للعدو بالمودة"(٦٧) كما وصف خلُق البراء من أعداء الله الكافرين بأنه سنة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ودعا إلى جعلها أسوة يتأسى بها المؤمنون، فقال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓۖ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة ٤]، "والتأسي بإبراهيم عليه السلام هو في التبرؤ من الشرك وهو في كل ملة وبرسولنا عليه الصلاة والسلام على الإطلاق في العقائد وأحكام الشرع"(٦٨)، ومن هذا العرض يظهر مدى العناية بتوجيه هذا الجيل إلى عقيدة الولاء والبراء باعتبارها من أوائل المبادئ العقدية التي تسهم مباشرة في تكوين شخصية المسلم ومواقفه الفكرية والعملية من الصراع بين الإسلام والكفر.

---

(٦٦) التحرير والتنوير (٢٨ /١٣٩)

(٦٧) أضواء البيان (٨ / ١٣١)

(٦٨) البحر المحيط (١٠ / ١٤٠)

ثانيًا: التوجيهات الفقهية والتشريعية

يعد الجانب التشريعي من أهم الجوانب في بناء الشخصية، فإنه هو الذي يضبط كل تصورات المرء ويقيمها على مراد الشرع، ومن ثم كان الفقه في الدين علامة الخيرية، كما في الحديث الصحيح: "من يرد الله به خيرًا يفقه في الدين"(٦٩)، وكان تميّز الذين أوتوا العلم على عموم المؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة١١]، قال القرطبي: "فيرفع المؤمن على من ليس بمؤمن، والعالم على من ليس بعالم، وقال ابن مسعود: مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى: أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم"(٧٠). ومن هذا المنطلق كان التوجيه الرباني الكريم لصحابة النبي ﷺ إلى التفقه في الدين لنشره في الناس ليحذروا مخالفة الله ورسوله، والوقوع في محارم الله عز وجل، ومن ثم يحذرون مخالفة أمر الله وأمر رسوله(٧١).

ومن الآيات التي نتوقف عندها في حث القرآن الكريم صحابة النبي ﷺ على طلب العلم قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة١٢٢]، قال القرطبي: "هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم؛ لأن المعنى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده. . . ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا الدين عنه ويتفقهوا، فإذا رجع

(٦٩) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، بَابٌ: مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، حديث ٧١.
(٧٠) الجامع لأحكام القرآن (٢٥٤/١٧)
(٧١) انظر: تفسير الخازن (٢ / ٤٢٢)

النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه، وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة"[٧٢]، وهذه الآية نزلت في الصحابة حتمًا لإجماع المفسرين على ذلك، إلا أن الخلاف في المقصود بهذه الطائفة التي نُدبت إلى التفقه في الدين، فقد أورد الطبري أقوالاً فيها منها ما هو بعيد، ولذلك أكتفي بذكر القولين الذين صدّر بهما هذا الخلاف واختار أحدهما وهما:

الأول: أنهم "نفر كان من قوم كانوا بالبادية، بعثهم رسول الله ﷺ يعلمون الناس الإسلام، فلما نزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة ١٢٠]، انصرفوا عن البادية إلى النبي ﷺ خشية أن يكونوا ممن تخلف عنه وممن عُني بالآية، فأنزل الله في ذلك عذرهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ الآية، وكره انصراف جميعهم من البادية إلى المدينة"[٧٣]، وهذا متوافق مع تفسير مجاهد لها "فلولا نفر من كل فرقة طائفة يبتغون الخير ليتفقهوا وليسمعوا باقي الناس، وما أنزل الله بعدهم ولينذروا قومهم الناس كلهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون"[٧٤].

الثاني: أنهم طائفة تتخلف مع النبي ﷺ عن الغزو في السرايا التي يبعثها وذلك ليتفقهوا عنده ﷺ وينذروا الطائفة التي تغزوا حين رجوعها بتعليمهم إياها ما تعلموه من رسول الله ﷺ، وهذا موافق لتفسير ابن عباس: "ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبي ﷺ وحده، ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني: عصبة، يعني: السرايا... فإذا رجعت السرايا وقد نزل بعدهم قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ

(٧٢) الجامع لأحكام القرآن (٢٦٦/٨)
(٧٣) جامع البيان (٧٦/١٢)
(٧٤) جامع البيان (٧٦/١٢)

قالوا: إن الله قد أنزل على نبيكم بعدكم قرآنًا، وقد تعلمناه، فيمكث السرايا يتعلمون ما أنزل الله على نبيهم بعدهم"[٧٥].

وهذا القول هو الذي اختاره الطبري وتبعه كثيرٌ من المفسرين قال أبو حيان: " أي: يجب إذا لم يخرج – أي النبي ﷺ - ألا ينفر الناس كافة، فيبقى هو مفردًا، وإنما ينبغي أن ينفر طائفة وتبقى طائفة لتتفقه هذه الطائفة في الدين وتنذر النافرين إذا رجعوا إليهم"[٧٦].

وعلى كلا التوجيهين تكون الإشارة واضحة إلى التوجيه القوي لطلب العلم وتحمله ومعرفة أحكام الدين وإبلاغها للناس وبثها فيهم، وذلك لأن العلم الشرعي هو قوام الفرد والجماعة فهو إحدى القوتين اللتين عناهما ابن القيم – رحمه الله – وهما القوتان العلمية والعملية إذ يقول: "فالسائر إلى الله والدار الآخرة لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويتجنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل"[٧٧]، فالعلم الشرعي هو الذي يوجه القلب والجوارح ويقوّم الأخلاق والأعمال، ونتج عن هذا التوجيه الذي عمق في نفوس الصحابة حب العلم والوعي بأهميته أن تسارع الصحابة رضوان الله عليهم إلى مجالس النبي ﷺ يطلبون علم الشرع، ويسألون عما أشكل عليهم وأرادوا معرفته من أحكام الشرع الحنيف، فكثرت مسائلهم عن فروع الفقه كما كثرت أيضًا عن أصول العمل الصالح.

ويهمنا في ذلك اهتمام القرآن الكريم بهذه المسائل التي طرحها الصحابة رضوان الله عليهم حيث أشار إلى كثير منها واهتم بالإجابة عليه ليسن منهجًا ربانيًا كريمًا في

---

(٧٥) جامع البيان (٧٨/١٢)

(٧٦) البحر المحيط (٥ / ٥٢٦)

(٧٧) طريق الهجرتين (ص: ١٨٣).

التوجيه التشريعي عن طريق السؤال والجواب، وكان ذلك مصدرًا بقوله: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ ﴾ أو ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ ﴾ ثم يأتي الجواب بعدها، وقد أجاب القرآن الكريم عن طائفة من الأسئلة التي وجهها الصحابة للنبي ﷺ موجهًا إياهم إلى معالم تشريعية عظيمة، ولافتًا إلى قيم كان أكثرها غائبًا عنهم في جاهليتهم وظل غائبًا حتى جلاه الله عز وجل لهم.

ومن أمثلة ذلك سؤالهم عن المحيض، وهو سؤال قد يستغرب أن يُسأل عنه، ولكن الجو الاجتماعي الذي كان يعيشه الصحابة في المدينة بعد انتقالهم من مكة يفسّر لنا سبب توجيه هذا السؤال، فهم يسألون عن تصرف الزوج مع زوجه الحائض، وقد كان كثير من العرب في الجاهلية يأنفون الحائض ويتقززون منها، ثم لما انتقل الصحابة إلى المدينة وجدوا اليهود قريبًا من هذه الشاكلة، يدل على ذلك حديث أنس عند مسلم "أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة٢٢٢]، فقال النبي ﷺ: اصنعوا كل شيء إلا النكاح"(٧٨)، فهذا التوجيه التشريعي يحمل قيمة تختلف عن القيم السائدة في هذا الوقت من امتهان المرأة إذا جاءت عليها سنة الله عز وجل فيها وهي الحيض، كما كانت تفعل العرب واليهود فخالف التوجيه الرباني بهم هؤلاء وهؤلاء حيث جعلهم يعتزلون النكاح أي: الجماع.

فالمستفاد من ذلك أن القرآن الكريم يوجههم إلى أشرف التصرفات وأوسطها وهو التصرف الجامع بين إكرام المرأة وعدم امتهانها في فترة الحيض بترك مؤاكلتها ومجالستها

(٧٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب جواز غسل الحائض، حديث ٣٠٢.

وبين البعد عن أذى الحيض بترك جماعها مع عدم حرمانها ولا حرمان نفسه من القرب النفسي والتلذذ بما دون الفرج، وهو منهج مستقيم وسط، لا وكس فيه ولا شطط.

ومن المسائل التي سألوه عنها سؤالهم عن الخمر، فمن المعروف أيضًا أن الخمر كانت شائعة في الجاهلية ومتداولة في أول الإسلام على الرغم من مضارها الشديدة، وذلك لاختيار المنهج التشريعي في الإسلام طريقة التدرج في الأحكام، فلم يحرموها أول الأمر، إلا أن بعض الصحابة كانوا يتبرمون من وجودها وشرب الناس إياها على ما فيها من مضرة، فتوجهوا بالسؤال إلى النبي ﷺ عن حكم هذه الخمر، ويبدو أن السؤال كان مصحوبًا بهذا التبرم مما في الخمر من المضار، يشير إلى ذلك ما ذكره الواحدي في سبب نزولها إذ قال: "نزلت في عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار، أتوا النبي ﷺ فقالوا: أفتنا في الخمر والميسر فإنهما مذهبة للعقل ومسلبة للمال، فأنزل الله عز وجل هذه الآية"[٧٩] وهي: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة ٢١٩]، وقد امتزجت في الإجابة الشدة والرأفة، وبيان للمضرة قبل بيان المنفعة، واستحثاث على الترك، وتزهيد من البقاء عليها، "فأخبر أن إثمهما ومضارهما وما يصدر منهما من ذهاب للعقل والمال والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء أكبر مما يظنون من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيهما، وكان هذا البيان زاجرًا للنفوس عنهما لأن العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته ويتجنب ما ترجحت مضرته، ولكن لما كانوا قد ألفوهما وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة، قدّم هذه الآية مقدمةً للتحريم الذي ذكره في قوله تعالى:

---

(٧٩) أسباب النزول (ص: ٥٧)

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾"[٨٠].

والمستخلص من هذا هو عمق مخاطبة القرآن الكريم للصحابة في مثل هذه المسائل فهو يخاطب فطرهم وألبابهم، فالشيء الذي فيه إثم كبير حتى وصل إلى أنه أعظم من النفع الذي فيه، ولا يستطيع العقل والفطرة إلا رفضه وكراهيته حتى وإن لم يكن محرمًا وهذا هو ما نبغي أن نصل إليه من خلال هذا العرض.

ومن الأدلة على ثراء الطريقة القرآنية في توجيه الصحابة رضوان الله عليهم من خلال الإجابة على استفتاءاتهم وتساؤلاتهم اشتمال هذه المسائل والأجوبة على كثير من القواعد والملامح المهمة التي تلفت نظر المتأمل ومن أهمها[٨١]:

١ – أكثر الأسئلة الواردة في الأحكام العملية، وهذا يدل على مدى حرصهم على العلم الذي يترتب عليه عمل، كسؤالهم عن الإنفاق وعن اليتامى وعن الأنفال وغيرها، أما الاشتغال في السؤال عن النظريات البحتة التي لا يتعلق بها نفع في الدنيا ولا ثواب في الآخرة فهذا ليس من شأن المؤمنين العاملين.

٢ – التوجيه الرباني إلى السؤال عن الأحكام لا عن الحقائق الكونية، فإن القرآن الكريم وإن كان وحيًا من الله عز وجل إلا أنه يحرص على توجيه الناس إلى ما ينفعهم، فإذا سألوا عما لا ينفعهم في هذا الوقت صُرفوا من خلال الإجابة إلى ما ينفعهم، ومما يظهر فيه ذلك إجابته الصحابة على سؤالهم عن الأهلة، وهو قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾ الآية. [البقرة ١٨٩]، فإن

(٨٠) تفسير ابن سعدي (ص ٩٨)

(٨١) أخذت جملة هذه الفوائد من تفسير القرآن الكريم للشيخ محمود شلتوت – رحمه الله – (ص: ٥٤٧) فما بعدها.

السؤال كان متعرضًا لطبيعة الأهلة من حيث نموها وتكاملها ثم رجوعها إلى الانتقاص مرة أخرى، فقد روي أنهم سألوا النبي ﷺ: ما بال الهلال يبدو ويطلع دقيقًا مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان فنزلت هذه الآية(٨٢). قال ابن عرفة: "وهذا على سبيل الإعراض عن الشيء والإقبال على غيره لأنهم سألوا عن سبب تغير الهلال ونقصه وزيادته في أيام الشهور، فأجيبوا بالسبب عن ذلك ونتيجته وأن فائدة ذلك معرفة أوقات الناس وأوقات الحج، أي: ذلك سؤال عما لا يعني، فلا حاجة لكم بالجواب عنه، وإنما حقكم أن تسألوا عن نتيجته"(٨٣)، وعلى هذا يكون الجواب إخراجًا للكلام على خلاف مقتضى الظاهر، بصرف السائل إلى غير ما يتطلب، تنبيهًا إلى أن ما صرف إليه هو المهم له.

وهذا التوجيه من أهم ما يتلقاه طالب العلم وهو يعد لمسؤوليات عظيمة، وهذا ما كان الصحابة يعدون له من إقامة دين الله في الأرض والعمل على تثبيت أركانه، وتعليم الناس الخير، وإرشادهم إلى ما ينفعهم في أمر دينهم، "لأن المراد بالعلم، العلم الشرعي الذي يفيد معرفته ما يجب على المكلف من أمر دينه في عبادته ومعاملاته، والعلم بالله وصفاته، وما يجب له القيام بأمره وتنزيهه عن النقائص"(٨٤)، وبهذا يحدث التكامل بين القوتين العلمية والعملية اللتين أشرت إليهما آنفًا.

٣ – معالجة التطبيقات الواقعية للتشريعات:

وهذا من الأمور المهمة في الفقه الإسلامي، بل في تصور المسلم لأمور حياته وحركته فيها، فإن الواقع المعيش ليس دائمًا وفي كل أحواله أرضًا خصبة لتطبيق الأحكام الشرعية، ففي كثير من الأحيان يتعارض الواقع مع تنفيذ بعض الأحكام

(٨٢) فتح القدير (١ / ٢٥٨). الدرر المنثور (٤٥٤/١)

(٨٣) تفسير ابن عرفة (٥٥٦/٢).

(٨٤) فتح الباري (١ / ١٤١)، تربية الصحابة ص: ١٣٤.

الشرعية في بعض الأوقات أو الأماكن، وهنا يأتي دور التوازن إذ يتعرض المسلم فردًا أو جماعة إلى موازنة تقتضي ارتكاب أحد الضررين، بترك واجب من أجل فعل ما هو أوجب منه أو فعل محظور من أجل ترك ما هو أشد منه، وقد وجه القرآن الكريم على سبيل الإشارة إلى هذه الطريقة في إجابته على سؤال الصحابة رضوان الله عليهم عن القتال في الشهر الحرام وذلك قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ [البقرة ٢١٧]، فإن هذه الآية نزلت في قصة سرية للنبي ﷺ مع الكفار كانت نتيجتها أن قتلت هذه السرية رجلاً من الكفار وأسرت رجلاً وغنمتهم فعُيّروا بالقتال في الشهر الحرام فسألوا النبي ﷺ عن ذلك فأُمر بهذه الإجابة التي تبيّن عظم القتال في الشهر الحرام -وهي حقيقة مقررة في الجاهلية والإسلام - إلا أنها تستدرك على ذلك أن ما يحدثه الكفار من كفر وفتنة وصد عن سبيل الله وإخراج لأهل المسجد الحرام منه كل ذلك أكبر عند الله عز وجل من القتال في الشهر الحرام، فإذا خيف وقوع هذه الأمور جاز اقتحامهم لهذا المحظور وهو القتال في الشهر الحرام(٨٥).

ولذلك كانت الإجابة تتضمن أن "القتال في الشهر الحرام إثم كبير، ولكن أكبر منه ما حدث من أعدائكم من صد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام، وإخراج المسلمين من مكة، وقد كان إيذاؤهم للمسلمين لإخراجهم من دينهم أكبر من كل قتل، ولذلك أبيح القتال في الشهر الحرام لقمع هذه الشرور، فهو عمل كبير يتقى به ما هو أكبر منه"(٨٦).

---

(٨٥) أسباب النزول للواحدي ٥٤-٥٥.

(٨٦) المنتخب في تفسير القرآن (ص ٥٨)

لقد كان التشريع التوجيهي للصحابة شاملاً لكل خطوات حياتهم يبين لهم كيفية ممارسة العبادة – عزائمها ورخصها – والحكم في المشكلات التي تعن لهم وتقرّ من طرائقهم في جاهليتهم ما كان موافقًا لمرضاة الله تعالى وتصحح ما لم يكن على هذا السبيل، وأكتفي بمثال يبيّن ذلك التوجيه، وهو ما جاء في قضية الظهار؛ فقد كان الظهار معروفًا في الجاهلية يستبيحه الأزواج لأنفسهم وصورته أن يحرم الرجل امرأته كحرمة أمه وأخته عليه وهذا هو الذي استمر معهم في الإسلام وخلصهم الله سبحانه وتعالى منه.

وقد وقعت واقعة الظهار من أوس بن الصامت –وهو من البدريين –، قال قتيبة: "وهو أول من ظاهر في الإسلام، وكان به لمم، فلاحى امرأته خولة في بعض صحواته، فقال: أنتِ عليّ كظهر أمي، ثم ندم"(٨٧)، وجاءت خولة إلى النبي ﷺ "تستفتيه في ذلك وتشتكي إلى الله فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة١] "(٨٨)، وتظهر الروايات التي أوردها البغوي لهذه القصة مدى الضرر الذي سيقع على خولة من جراء هذا الظهار لو أنها حرمت عليه كما أخبرها النبي ﷺ، وفيما هي كذلك تجادل نزلت الآية بشأنها، قالت عائشة رضي الله عنها: "تبارك الذي وسع سمعه الأصوات كلها، إن المرأة لتحاور رسول الله ﷺ وأنا في ناحية من البيت، فأسمع بعض كلامها ويخفى عليّ بعضه، إذ أنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾(٨٩).

ومن هنا يتضح مدى العنت الذي كان يقع على النساء من أمر الظهار بل ربما على الرجال أيضًا، فقد يتسرع الرجل فيظاهر ثم يندم كما حدث في قصة أوس بن

---

(٨٧) المعارف (١ / ٢٥٥)

(٨٨) تفسير القرآن العظيم (٨/٣٤)

(٨٩) معالم التنزيل (٤/٣٣٨)

الصامت، فإذ راجع أمر نفسه وجد زوجه قد حرمت عليه أبدًا ومراعاة لهذه المضرة ودفعًا لها، كان التشريع الرباني الكريم والتوجيه الإلهي لصحابة النبي ﷺ بالأحكام الشرعية المتعلقة بهذا الظهار.

وأول هذه الأحكام أنه كذب بغيض، ويبدو أنه كان في العرب خاصة، قال البقاعي: "ولما كان الظهار خاصًا بالعرب دون سائر الأمم نبه على ذلك تهجينًا له عليهم، وتقبيحًا لعادتهم فيه. . . لأن الكذب لم يزل مستهجنًا عندهم في الجاهلية، ثم ما زاده الإسلام إلا استهجانًا"[٩٠]، قال تعالى في وصف هذا الظهار: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [المجادلة٢]، قال ابن عاشور: "وزيد صنيعهم ذمًا بقوله: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، توبيخًا على صنيعهم، أي: هو مع كونه لا يوجب تحريم المرأة هو قول منكر، أي: قبيح، لما فيه من تعريض حرمة الأم لتخيّلات شنيعة، تخطر بمخيلة السامع عندما يسمع قول المظاهر: أنتِ عليّ كظهر أمي، وهي حالة يستلزمها ذكر الظهر في قوله: (كظهر أمي)"[٩١]، فقول المظاهر: أنتِ عليّ كظهر أمي، منكر من وجهين: من وجه الحقيقة ووجه الشرع وهو زور لأنه كذب باطل منحرف عن الحق[٩٢].

فهذا توجيه إلهي لصحابة النبي ﷺ بتغيير عاداتهم إلى ما هو أفضل وفرز سلوكياتهم وعرضها على الشرع، فما صح في الشرع صنعوه، وما احتاج إلى تغيير أو تعديل فعلوه، وما كان مرتبطًا بآثار شرعية لاحظوها، وقد كان الظهار من الأمور التي لها تعلق بأحكام شرعية ذكرتها سورة المجادلة ملخصة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ

(٩٠) نظم الدرر (٧ /٤٨٠)

(٩١) التحرير والتنوير (١٢/٢٨)

(٩٢) انظر: البحر المحيط لابن حيان (٢٣١/٨)

يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ﴾ [المجادلة ٣ – ٤].

ولا شك أن هذه الكفارة الشديدة تدل على مدى فظاعة العمل، "ولعل الحكمة في وجوب الكفارة قبل المسيس أنه أدعى لإخراجها فإنه إذا اشتاق إلى الجماع وعلم أنه لا يمكن من ذلك إلا بعد الكفارة بادر بإخراجها"(٩٣)، ويعرف من تثقيل الكفارة وفوريتها الإشارة إلى عظم ما اقترف من الإثم وقول الزور، فهو من أشرف التوجيهات التي تلقاه الصحابة في المجال التشريعي من حيث إنها تقوم أخلاقهم وسلوكياتهم وترتفع بهم إلى مكارم الأخلاق في القول والسلوك.

ثالثًا: التوجيهات الاجتماعية والأخلاقية:

من مقاصد الشريعة الإسلامية بناء المجتمع المسلم بناء سليمًا، وشيوع القيم الفاضلة في أفراده وجماعاته مع صلابة بنيته وقوة تماسكه ومن هذا المنطلق كانت التوجيهات القرآنية لصحابة النبي ﷺ شاملة لما يكفل وجود هذه السمات المشار إليها ويمنع من ضدها ولعل من أول السمات التي سعت التوجيهات القرآنية إلى تثبيتها في المجتمع المسلم هي سمة التلاحم والتماسك والتعاضد بين المسلمين فقد جعل الله سبحانه وتعالى نعمة الأخوة في الله وتآلف القلوب عليه سبحانه وعلى دينه نعمة عظيمة يلفت إلى تذكرها في غير موضع من القرآن الكريم فيقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران ١٠٢ -١٠٣]، والمراد بمن كانوا أعداءً قبل نعمة الله عليهم هم

(٩٣) تفسير ابن سعدي (ص٨٤٥)

الأوس والخزرج في تفسير ابن عباس الذي ارتضاه الطبري وغيره من المفسرين[٩٤] قال ابن كثير: "وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج، فإنه قد كانت بينهم حروب كثيرة في الجاهلية وعداوة شديدة وضغائن وإحن ودخول طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم فلما جاء الله بالإسلام ودخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله متواصلين في ذات الله متعاونين على البر والتقوى"[٩٥] وفي تذكيرهم بنعمة الألفة والأخوة بعد الفرقة والعداء ما يشير إلى عظم هذه النعمة وإلى تفريط الكثير في العمل بمقتضاها، ومن هنا جاء التوجيه بالإصلاح بين المتخاصمين وبين الفئات المتقاتلة من المؤمنين حرصًا على تماسك الجماعة وتعاضد أفراد المجتمع وفئاته، قال تعالى: ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات ٩ – ١٠]، جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبي، فانطلق إليه النبي ﷺ وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون وهي أرض سبخة، فلما انطلق النبي ﷺ إليه قال: إليك عني فوالله لقد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال فبلغنا أنه أنزلت فيهم، ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ فالإصلاح بين المتخاصمين والمتقاتلين معلل في الآية ومؤازر بقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فهذا القول: "تعليل لإقامة الإصلاح بين المؤمنين إذا استشرى الحال بينهم فالجملة

(٩٤) جامع البيان (٧٧/٧) والبحر المحيط (٢١/٣)

(٩٥) تفسير القرآن العظيم (١ / ٤٧٧)

موقعها موقع العلة وقد بني هذا التعليل على اعتبار حال المسلمين بعضهم مع بعض كحال الأخوة، وجيء بصيغة القصر المفيد لحصر حالهم في حال الأخوة مبالغة في تقرير هذا الحكم بين المسلمين"[٩٦].

وفي السياق نفسه يأتي قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال ١]، فإن هذه الآية نزلت في أهل بدر كما في قول ابن عباس وغيره من صحابة النبي ﷺ، أنه لما كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: من صنع كذا وكذا فله كذا وكذا قال: فتسارع في ذلك شبان الرجال وبقيت الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنائم جاءوا يطلبون الذي جُعل لهم، فقالت الشيوخ: لا تستأثروا علينا فإنا كنا ردءًا لكم وكنا تحت الرايات ولو انكشفتم لفئتم إلينا فتنازعوا فأنزل الله هذه الآية[٩٧].

ففي الآية عتاب قويّ لهم على اهتمامهم بهذه المسألة ووقوع التنازع بينهم من أجلها، فلم يفض اهتمامهم بها إلى خير، ويشير إلى هذا المعنى ما روى الحاكم والبيهقي وغيرهما عن أبي أمامة قال: "سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت، حين اختلفنا في النفل، فساءت فيه أخلاقنا، فانتزعه الله تعالى من أيدينا، وجعله إلى رسول الله ﷺ. . ."[٩٨].

وهذا الأثر فيه أن التنازع والاختلاف بين المسلمين -وإن كان على شيء يرى كل طرف أنه أحق به في دين الله تعالى - فإنه مع ذلك يأتي بشرّ، وقد تكون نتيجته انتزاع هذا الفضل من أيديهم، ومن ثمة جاء التوجيه القرآني بعد إجابة السؤال إلى

---

(٩٦) التحرير والتنوير (٢٤٣/٢٦)

(٩٧) جامع البيان (١٣/١١) أسباب النزول (ص: ١٨١) والحديث عند أبي داود.

(٩٨) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب بيان مصرف الغنيمة في ابتداء الإسلام، حديث ١٢٧١٤.

إصلاح ذات البين، على اعتبار أنها من أولى الواجبات، قبل طلب الحق، وإن ظُن أنه حق شرعي، ولعل من أخصر الآيات وأدلها على عظمة شأن الإصلاح بين الناس قوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء ١١٤]، قال الرازي: "وإنما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة أو بدفع المضرة، أما إيصال الخير فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية وهو إعطاء المال وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإما أن يكون من الخيرات الروحانية وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة ومجموعها عبارة عن الأمر بالمعروف وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وأما إزالة الضرر فإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾"[٩٩] وأقول: إن الإصلاح بين الناس يظهر فيه هذان الأمران معًا جلب المصلحة ودفع المضرة، فإن الإصلاح بين المسلمين جلب مصلحة قوتهم وتماسكهم وإخافة عدوهم.

ومن وسائل التماسك الاجتماعي يُذكرُ التكافل بين أفراد المجتمع، فهو ليس فقط مجرد عطف من الغني على الفقير وإنما هو مزيد ألفة من خلال التبادل العاطفي بين المعطي والآخذ، فإذا كان التكافل في عمومه مرحمةً وبرًا له بركاته التي تؤثر بالخير والألفة -وهذا أمر مقرر وواضح لا يحتاج إلى مزيد بسط - ففي حالات خاصة تهدد هذه المودة وتطل أسباب تفككها تحت وطأة ظرف من الظروف أو حادثة من الحوادث فيكون البذل والعطاء والتكافل في هذه الحالة مدعاة لاتصال المودة واستمرار الترابط الاجتماعي بدلاً من أن يفقد المجتمع هذه المودة وهذا الترابط، ومن أمثلة ذلك توجيه القرآن الكريم لأبي بكر الصديق لما قطع النفقة عن مسطح بن أثاثة وهو أحد

(٩٩) التفسير الكبير (٤١/١١).

أقربائه - وكان ينفق عليه - فلما جاء الإفك وقع مسطح فيما وقع فيه غيره من قذف عائشة رضي الله عنها، فقرر أبو بكر وقف الإنفاق عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: "فلما أنزل الله تعالى هذه الآية في براءتي قال الصديق وكان ينفق على مسطح لقرابته وفقره: والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور٢٢]، فقال أبو بكر: والله أني أحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح النفقة التي كانت عليه وقال: لا أنزعها منه أبدًا"(١٠٠).

قال ابن عطية رحمه الله: "أي كما تحبون غفران الله لكم ذنوبكم اغفروا لمن دونكم"(١٠١)، فهذه اللحظة النفسية هي لحظة المحاورة الداخلية التي تتجاذبها قوتان: قوة حب العطاء والبذل طمعًا في التلاحم الذي هو مقصد من مقاصد الشرع الحنيف، وقوة الأذى الواقع على النفس والذي يدفع إلى الانتقام بمنع العطاء، فيأتي التوجيه الرباني الكريم بالتغلب على طبيعة النفس في حب الانتصار من أجل استمرار هذه النعمة وهي نعمة التلاحم الاجتماعي.

وإذا كان تماسك المجتمع وترابطه بهذه الصورة من الأهمية فإن طهارة البيت المسلم، ورقي تصوراته وسلوكه لا يقل أهمية عن هذا المقصد السابق ومن هنا كثرت التوجيهات القرآنية لصحابة النبي ﷺ في الجانب الأسري حتى إن كثيرًا منها كان موجهًا لشخص النبي ﷺ ليوجه أصحابه إليه وذلك في مختلف التصرفات الحياتية التي تمارسها الأسرة المسلمة.

---

(١٠٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (٦)، حديث ٦٦٧٩.

(١٠١) المحرر الوجيز (ص: ١٣٥٣)

إن شيوع جو السكينة في البيت المسلم هو مطلب ضروري ومقصد أساس للشريعة الإسلامية ولا يتم ذلك في حقيقته ويكمل إلا بشيوع ذكر الله وأداء فرائضه واجتناب نواهيه، ومن هذا الباب يأتي قوله تعالى موجهًا الطبقة العالية من طبقات ربات البيوت وهي طبقة نساء النبي ﷺ بقوله: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِۚ إِنِ ٱتَّقَيۡتُنَّ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ٣٢ وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰۖ وَأَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب ٣٢ – ٣٤]، في هذه الآية نموذج لتهذيب هذا البيت الكريم وغرس روح الطمأنينة فيه ببث وسائلها المشروعة التي تتفرع عن التقوى صادرة منها وراجعة إليها وهي:

١ – البعد عن الشبهة بتمام التحصّن والتصوّن ﴿ فَلَا تَخۡضَعۡنَ بِٱلۡقَوۡلِ فَيَطۡمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلۡبِهِۦ مَرَضٞ وَقُلۡنَ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: "لا ترخّصن بالقول"، وقال الحسن: "لا تكلمن بالرفث"، وقال الكلبي: "لا تكلمن بما يهوى المريب"، وقال ابن زيد: "الخضوع بالقول: ما يدخل في القلب الغزل"، وقيل: لا تُلنّ للرجال القول"[١٠٢]، أقول: وكل هذا مقصود وهو من باب التفسير بالمثال، لأن كل هذا أنواع لأصل واحد وهو الخضوع بالقول، والمستفاد منه تمام التصوّن وعدم الاقتراب من الشبهة. ومن هنا "كان المجتمع الأول يضرب على أيدي الخاضعين والخواضع ليحفظ بذلك نقاء الأمة ويصون شرفها وطهرها وأنسابها، وقد أهدر عمر حق الرجل الذي لاين امرأة في القول، ضربه رجل حتى شجّه، قالوا: مرّ رجل في زمان عمر رضي الله عنه برجل وامرأة قد خضعا بينهما حديثًا فضربه الرجل حتى شجّه فرفع إلى عمر

(١٠٢) البحر المحيط (٨/٤٧٥)

رضي الله عنه فأهدره، وهكذا كان المسلمون في مجتمعهم حراسًا على الأخلاق وآداب الإسلام"[١٠٣].

٢ – الوقار داخل البيت وخارجه إن لزم الخروج لحاجة ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ﴾ قرأ نافع وعاصم بفتح القاف وقرأ الباقون بكسرها[١٠٤]، فمن قرأ بالفتح فهو من قررت بالمكان أي استقررت فيه ومن قرأ بالكسر فهو من الوقار، ويجمع بين المعنيين قول المفسرين كما حكاه ابن الجوزي: "معنى الآية: الأمر لهن بالتوقير والسكون في بيوتهن وألا يخرجن"[١٠٥].

٣ – الأخذ بأسباب العفة ﴿ بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ قال البقاعي: "ولما أمرهن بالقرار نهاهن عن ضده مبشعًا له فقال: ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ ﴾ أي تظاهرن من البيوت بغير حاجة محوجة، فهو من وادي أمر النبي ﷺ لهن بعد حجة الوداع بلزوم ظهور الحصر"[١٠٦]، وقال الشوكاني: "التبرج أن تبدي المرأة من زينتها ومحاسنها ما يجب عليها ستره مما تستدعي به شهوة الرجل"[١٠٧]، أقول: والمعنى يستوعب الأمرين لأن كليهما خروج عن الوقار واجتذاب لالتفات الرجال.

٤ – أداء الواجبات الشرعية وترك معصية الله تعالى: ﴿ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ ولعل القرآن الكريم أشار إلى عموم الواجبات بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة "لأنهما أصل الطاعات البدنية والمالية، ومن اعتنى بهما حق

---

(١٠٣) من أسرار التعبير القرآني (ص: ٢٨١)

(١٠٤) الحجة في علل القراءات (١٧٦/٤).

(١٠٥) زاد المسير (٣٧٩/٦)

(١٠٦) نظم الدرر (١٠٢/٦)

(١٠٧) فتح القدير (٤ / ٢٧٠)

الاعتناء جرّتاه إلى ما وراءهما"[١٠٨]، وأما طاعة الله ورسوله فهي سبب السعادة لأن المعصية هي سبب الخذلان.

٥ – طلب العلم الشرعي بتدبر كتاب الله ودراسة سنة نبيه ﷺ ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ "قال أهل العلم بالتأويل: آيات الله: القرآن، والحكمة: السنة"[١٠٩]، ولا شك أن حرص المرأة على تدبر كتاب الله عز وجل ودراسة سنة نبيه ﷺ له أثره البالغ في نفسها وفي بيتها، فهي ربة البيت وقدوته وحولها يلتف أهل البيت وهي أكثر ملازمة له وهذا يتيح لهم رؤيتها على هذه الحال، فموضع القدوة فيها ظاهر، وأثره في تكوين البيت واضح لا خفاء فيه.

فهذه العناصر ترمي إلى تكوين شخصية ربة البيت المسلمة التي تعد منارة للبيت ولما حوله، وقدوةً حسنة لأبنائها ومن لها فيهم تأثير ومن ثم كانت هذه العناصر بمنزلة صمام الأمان للأسرة المسلمة تجاه ما يحدق بها من أخطار.

ويعد التكوين الموضوعي لسورة النور مثالاً لهذا الأمن الوقائي الذي يتخذ من الأخلاق الاجتماعية سياجًا يحمي من الوقوع في الرذائل، فبعد ذكر قصة الإفك – وهي القصة التي هزت المدينة النبوية أيامًا متطاولة لتهديدها الأمن الاجتماعي في المدينة متمثلاً في أشرف بيت فيها وهو بيت النبي ﷺ – شرعت السورة في وضع احتياطات واحترازات لهذا الأمن تمثلت كلها في جملة من الآداب الاجتماعية وهي على الترتيب:

١ – التحذير من شيوع الفاحشة وأخبارها في المؤمنين ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

---

(١٠٨) السراج المنير (٣٥١/٥)

(١٠٩) الجامع لأحكام القرآن (١٦٢/١٤).

[النور١٩]، قال الرازي: "اعلم أنه سبحانه لما بيّن ما على أهل الإفك وما على من سمع منهم وما ينبغي أن يتمسكوا فيه من آداب الدين اتبعه بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ الآية ليُعلم أن من أحب ذلك فقد شارك في هذا الذنب كما شارك فيه من فعله، ومن لم ينكره، وليُعلم أن أهل الإفك كما عليهم العقوبة فيما أظهروه فكذلك يستحقون العقاب بما أسروه من محبة إشاعة الفاحشة في المؤمنين"(١١٠).

٢ – آداب الدخول إلى المنزل، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور٢٧]، وقد ذكر ابن عادل العلاقة بين هذه الآية وحديث الإفك فقال: "لما ذكر حكم الرمي والقذف؛ ذكر ما يليق به لأن أهل الإفك إنما توصلوا إلى بهتانهم لوجود الخلوة، فصارت كأنها طريق التهمة فأوجب الله تعالى ألا يدخل المرء بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام، لأن الدخول على غير هذا الوجه يوقع التهمة، وفي ذلك من المضرّة ما لا خفاء به"(١١١).

ولذا كان الصحابة ينعون على الناس تفريطهم في العمل بهذه الآية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: "ثلاث آيات جحدهن الناس، فذكر منهن هذه الآية"(١١٢)، وسئل الشعبي عن هذه الآية أمنسوخة هي؟ قال: "لا والله، قيل: إن الناس لا

(١١٠) تفسير الرازي (٣٤٥/٢٣).
(١١١) اللباب في علوم الكتاب (٣٤١/١٤).
(١١٢) جامع البيان (٣٥٤/١٧).

يعملون بها، قال: الله المستعان"[١١٣]، وقال سعيد بن جبير: "إن ناسًا يقولون نُسخت، والله ما نُسخت ولكنها مما تهاون به الناس"[١١٤].

فهذه الضوابط التي ذكرت في إطار التعقيب على حادثة الإفك تعطي دلالة واضحة على أن صيانة البيت المسلم بالآداب الاجتماعية مقصد عظيم من مقاصد الشريعة، وإجراء أمني وقائي ضد الانحراف والفاحشة.

وإذا كان تماسك البيت المسلم وحمايته من التفكك راجعًا لاعتباره أساس المجتمع المسلم ولبنته الأولى، فإن الخوف من تفكك المجتمع أو لحوق الضرر به يوجب التحسس على أهم الأمراض التي لها أثرها السيئ في المجتمع، وفاعليتها الضارة به، وإذا أردنا أن نضع أيدينا على مثال واحد من أمثلة هذه المفاسد التي تهدد المجتمع، فلعل ظاهرة الإرجاف التي تسمى في العصر الحديث الشائعة تعد من أبرز الأمثلة على ذلك وقد وجدت الشائعة في المجتمع الإسلامي بالمدينة النبوية في إطاره الاجتماعي وفي إطاره السياسي والعسكري، وذكر القرآن الكريم أمثلة منها في هذه الأطر المتنوعة مبينًا خطورتها أروع بيان ويكفي هذا التهديد الذي شرعه في وجه أصحاب الإشاعات والأراجيف الكاذبة، إذ يقول جل وعلا: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب ٦٠ – ٦٢]، فهذا التوعد الشديد يدل على معاناة المجتمع المسلم في المدينة من هذه الشائعات. وقد وردت هذه الآيات في سورة الأحزاب بعد ذكر الغزوة وهذا يدل على تأخر نزولها، أي أنها نزلت بهذه الصورة من الوعيد والتهديد

(١١٣) معالم التنزيل (٣/٣٥٦)

(١١٤) معالم التنزيل (٣/٣٥٦)

بعد أن قاسى المسلمون من مرارة الشائعات أصنافًا متعددة، ولا شك أن معظم ما يتعلق بالشائعة في القرآن الكريم -إن لم يكن كله - موجهٌ ابتداءً إلى الصحابة رضي الله عنهم، وذلك لأمرين:

الأول: أن هذه الإشاعات كان خطرها في أول منشئها على جيل الصحابة أنفسهم كما مرّ.

الثاني: أن بعض الصحابة قد انزلق من حيث لا يشعر في وهدة الشائعة فشارك من حيث لا يدري في تحقيق أهداف اليهود والمنافقين من الإرجاف بين المسلمين من أجل تقويض هذا المجتمع الإسلامي.

ومن الأمثلة على ذلك واقعة الوليد بن عقبة بن أبي معيط مع بني المصطلق التي نزل فيها قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات٦]، قال الواحدي: "نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه رسول الله ﷺ إلى بني المصطلق مصدّقًا وكان بينه وبينهم عداوة في الجاهلية، فلما سمع القوم تلقوه تعظيمًا لله تعالى ولرسوله ﷺ فحدثه الشيطان أنهم يريدون قتله فهابهم، فرجع من الطريق إلى رسول الله ﷺ وقال: إن بني المصطلق قد منعوا صدقاتهم وأرادوا قتلي، فغضب رسول الله ﷺ وهمّ أن يغزوهم فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله ﷺ وقالوا: سمعنا برسولك فخرجنا نتلقاه ونكرمه ونؤدي إليه ما قِبلنا من حق الله تعالى، فخشينا أن يكون إنما ردّه من الطريق كتاب جاءه منك لغضبٍ غضبته علينا وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴾"[١١٥]، فهذا الرعب الذي بثه الشيطان في نفس الوليد بن عقبة، ثم ردده

(١١٥) أسباب النزول (ص: ٣٠١) ومعنى: مصدّقا: أي قائمًا على الصدقات وجمعها.

الوليد بين يدي النبي ﷺ وأصحابه كان له أثره في همّ النبي ﷺ في اتخاذ قرار غير مبني على شيء من الحقيقة لولا أن رحمة الله تعالى تداركت النبي ﷺ وصحابته، وقد بقيت الآية إرشادًا للصحابة الكرام ثم من بعدهم إلى التثبت من الأخبار وعدم أخذها وتصديقها بدون تروٍ وتبيّن.

وتحليل الآية تحليلاً لفظيًا يؤدي إلى التماس أربعة معانٍ مهمة في هذا التوجيه الإلهي الكريم:

الأول: الشرط بقوله ﴿إِن جَآءَكُمْ﴾ وهو يفيد التقليل والشك، كما يؤديه الحرف ﴿إِن﴾؛ فهو "إشارة إلى لطيفة، وهي أن المؤمن كما كان موصوفًا بأنه شديد على الكافر غليظ عليه فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره بنبأ، فإن تمكن منه يكون نادرًا، فقال: ﴿إِن جَآءَكُمْ﴾ بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع"[١١٦].

الثاني: الأمر في قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ وفي قراءة أهل المدينة ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾[١١٧] وفيها إشعار للمؤمنين بخطورة التهاون في التعامل مع الأخبار.

الثالث: التحذير في قوله: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ فيه تهويل من شأن الاسترواح للشائعات وعدم التثبت فيها، فإن جهالتهم وإن كان محترزًا بها عن التعمد فهي لم ترفع إصابة القوم، أي لم ترفع الضرر الواقع بالمسلمين.

الرابع: نتيجة ذلك كله ﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ أي: "مغتمين غمًا لازمًا متمنين أنه لم يقع... يعني أن الندم غمّ يصحب الإنسان صحبةً لها دوام على ما وقع مع تمني أنه لم يقع"[١١٨].

---

(١١٦) التفسير الكبير (١١٩/٢٨)

(١١٧) السبعة في القراءات (ص: ٢٣٦)

(١١٨) روح المعاني (٢٦/ ٤١٦)

وإذا كان الوليد بن عقبة لم يتعمد بث الشائعة أو الإرجاف، إنما انزلق فيه انزلاقًا[١١٩]، فقد كان في المدينة من يخطط للشائعة ولكيفية نشرها وينتهز الفرص والأوقات المناسبة لبث ما يتناسب مع كل وضع من الأوضاع، وهؤلاء هم الذين سماهم الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ فعرّفهم بالألف واللام وشهّر أمرهم في إطار تهديدهم بالاستئصال، وهم "قوم من المسلمين ينطقون بالأخبار الكاذبة حبًا للفتنة"[١٢٠].

ومن أمثلة الشائعات التي خطط لها المنافقون، ولم يفطن بعض الصحابة إلى خطرها فشارك فيها (حادثة الإفك) وهو الكذب الذي أشاعه المنافقون عن طريق بعض الصحابة بعد قفول النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور١١]، قال ابن عباس: ﴿ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ ﴾ " الذين افتروا على عائشة: عبد الله بن أبي وهو الذي تولى كبره، وحسان بن ثابت، ومسطح، وحمنة بنت جحش"[١٢١]، وبمثل هذا قال المفسرون، فقد نقل الشوكاني إجماع المسلمين "على أن المراد بما في الآية، ما وقع من الإفك على عائشة أم المؤمنين، وإنما وصفه الله بأنه إفك لأن المعروف عن حالها رضي الله عنها خلاف

---

(١١٩) ذهب جماهير المفسرين إلى أن الآية لا تنسب الفسق إلى الوليد بن عقبة رضي الله عنه، لأنه لم يتعمد هذا الأمر إنما ظن ظنًا بنا عليه قوله، قال ابن عاشور: "وقد اتفق المفسرون على أن الوليد ظن ذلك كما عند ابن عبد البر، وليس في الروايات ما يقتضي أنه تعمد الكذب" التحرير والتنوير (٢٦/ ٢٢٩) ويؤيد ذلك ما ذهب إليه الرازي من أن "إطلاق لفظ الفاسق على الوليد سيء بعيد لأنه توهم وظن فأخطأ، والمخطئ لا يسمى فاسقًا" التفسير الكبير (٢٨/ ١١٩).

(١٢٠) الجامع لأحكام القرآن الكريم (١٠٨/٢٢)

(١٢١) جامع البيان (١٩٠/١٧)

ذلك"[١٢٢]، ويُلاحظ أن القرآن الكريم قد اختار لفظ الإفك بدلاً من الكذب وذلك لأن "الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، وقيل هو البهتان لا تشعر به حتى يفجأك، وأصله الأفك وهو القلب، لأنه قول: مأفوك على وجهه"[١٢٣].

ونركز في هذه السطور على الأسباب التي يمكن أن يستخلص من الآيات النازلة في هذه الحادثة وهي:

١ – عدم التفكر فيما يسمع المرء وما ينشره، فكأنه لا يعقل ما يسمع ولا ما يقول، قال تعالى: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور ١٥]، "أي: تقولون قولاً مختصًا بالأفواه من غير أن يكون له مصداق ومنشأ في القلوب، لأنه ليس تعبير عن علم به في قلوبكم"[١٢٤].

٢ – استصغار أمر هذه الشائعة وعد التفكر في خطورتها ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور١٥]، فهؤلاء الذين خاضوا في الإفك كما يستصغرون أمر هذه الكلمات التي أخرجوها من أفواههم بغير تدبر فيها مع أنه عظيم من العظائم، وقد "نبه بقوله ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ على أن عظم المعصية لا يختلف بظن فاعلها وحسبانه، بل ربما كان ذلك مؤكدًا لعظمها من حيث جهل كونها (عظيمًا)"[١٢٥].

وحديث الإفك، وما أشاعه في المدينة النبوية من حزن وأسى عند النبي ﷺ وصحبه الكرام مشهور، وهو إشارة واضحة إلى خطورة الاستسلام للشائعات وترديدها دون تروٍ أو بصيرة.

---

(١٢٢) فتح القدير (٤ / ١٣)

(١٢٣) الكشاف (ص ٧٢١)

(١٢٤) روح المعاني (٤٣٠/١٨)

(١٢٥) التفسير الكبير (٣٤٣/١٨)

والحق الواضح أن آثار الشائعات بل وتخطيط المنافقين واليهود لهذه الآثار لم يقف عند الجانب الاجتماعي وحده، بل تعداه إلى الجوانب السياسية والعسكرية كما سيأتي.

رابعًا: التوجيهات السياسية والعسكرية:

إذا كانت التوجيهات الاجتماعية والأخلاقية قد كفلت تماسك المجتمع الإسلامي وطهارته بالفضيلة وبعده عن التدنس بالرذائل فإن التوجيهات السياسية والعسكرية لا تقل أهمية عنها لأنها تهدف إلى غاية عظيمة هي صلابة هذا المجتمع من حيث كونه دولة، وقدرته على تحقيق أهدافه وبلوغ غاياته السامية المتمثلة في تعبيد الناس لله عز وجل ونصرة دينه وإقامة شرعه.

ومن نتائج التمسك بهذه التوجيهات الانتصار على العدو والثبات أمام التحديات المختلفة، التي تحدق بالكيان الإسلامي وتهدد بقاءه واستمراره فضلاً عن تطوره وازدهاره، ومن هنا تولى القرآن الكريم توجيه صحابة النبي ﷺ إلى مبادئ سياسية تنبع من عقيدة التوحيد وأخلاقياتها الفاضلة وتسمو بنفس الفرد إلى أن يعتبر نفسه واحدًا من عناصر كيان سام، ويضعها في موضعها الذي وضعها الله عز وجل فيه حتى يكون سهمًا مسددًا من الكنانة الربانية لنصرة الدين وتثبيته في الأرض بغية الوصول إلى رضا الله سبحانه وتعالى، ومن أهم هذه التوجيهات:

١ – الالتفاف حول القائد:

يعد القائد في أي نظام من الأنظمة هو محور العمل في الإطار الذي اُخْتِيرَ له من أجل نجاحه وتقدمه، ولا خلاف في أن الإطار السياسي والعسكري هو الذي تلتقي عنده كافة الأطر تأثيرًا وتأثرًا وأخذًا وعطاءً، ومن هنا يتضح أمران:

الأول: أن مفهوم القائد لا يتوقف عند القيادة السياسية أو العسكرية، لأن القيادات الأخرى لها أثرها في التوجيه السياسي والعسكري.

والثاني: أهمية القيادة السياسية والعسكرية وتبعية غيرها لها ضرورة، وأن قوة هذه القيادة – وإن كانت تتأثر بقوة غيرها – فهي تؤثر تأثيرًا مباشرًا وقويًا في كافة القيادات الأخرى، ومن هنا كانت العناية القرآنية بتوجيه جيل الصحابة إلى الالتفاف حول قيادته السياسية والعسكرية فضلاً عن القيادات الأخرى، كالقيادة العلمية والاجتماعية، ويحسن هنا أن أشير إلى أن هذه القيادات كلها كانت يومئذٍ مجتمعة في رسول الله ﷺ، وإذا تأملنا قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴾ [الأنفال٢٠]، التقينا بأصل عظيم من أصول التعامل مع القائد، فإن هذه الآية جاءت في أعقاب الآيات التي تذكر خروج المسلمين إلى بدر، ونصرهم على عدوهم بفضل التفافهم حول قائدهم وطاعتهم له وترجيح أمره على تصورهم للمصلحة، وتقديرهم لمدى المشقة، فإن النبي ﷺ قد دعاهم إلى الخروج إلى بدر ليقاتلوا أهل مكة التي قذفتهم يومئذ بأفلاذ أكبادها، تاركين رأيهم الذي رأوه وتقديرهم الذي قدروه وهو الخروج إلى عير أبي سفيان، وودّهم أن تأتيهم هذه الغنيمة الباردة بدلاً من الدخول في معركة عسكرية مع عدوّ قوي، فلما كان منهم هذا الالتفاف وهذا الترجيح لاختياره على اختيارهم كان لهم النصر مكافأة عاجلة، ثم جاء هذا التوجيه الكريم الذي يحمل بين طياته إشارة إلى أن في طاعة النبي ﷺ وترجيح اختياره معونة على النصر وعلى النجاح، قال ابن عاشور: "لما أراهم الله آيات لطفه وعنايته بهم ورأوا فوائد امتثال أمر الرسول ﷺ بالخروج إلى بدر وقد كانوا كارهين الخروج، أعقب ذلك بأن أمرهم بطاعة الله ورسوله شكرًا على نعمة النصر واعتبارًا بأن ما يأمرهم به خير عواقبه"(١٢٦)، فكأن هذه الآية تحمل إشارتين بليغتين:

(١٢٦) التحرير والتنوير (٣٠٢/٩)

الأولى: التوجيه إلى أثر طاعة القائد في نجاح الكيان الإسلامي مستثمرة الحدث الذي ما يزال الصحابة يعيشونه.

والثانية: وجوب استمرارية هذه الطاعة لما لها من أثر واضح في أداء هذا الكيان.

ولا يظن بأن الأمر بطاعة النبي ﷺ في هذه الآية خاص بشخص النبي ﷺ، فإن سياق الآيات يدل على أنها طاعة في أمر دنيوي، "وكما تجب في الدين طاعة رسول الله ﷺ تجب طاعة أولي الأمر"(١٢٧)، ويفسر شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – المقصود من أولي الأمر بقوله: "وأولوا الأمر أصحاب الأمر وذووه وهم الذين يأمرون الناس، وذلك يشترك فيه أهل اليد والقوة وأهل العلم والكلام"(١٢٨)، وهذا التعريف يشير إلى عموم القيادة التي أشرت إليها في صدر الكلام، ويوافقه الشوكاني – رحمه الله – مع شيء من الضبط والتحديد، بقوله: "وأولوا الأمر هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية"(١٢٩)، وعلى هذا أسس المصنفون في السياسة الشرعية مصنفاتهم كالماوردي وأبي يعلى الفراء(١٣٠) وغيرهم.

أما مصطلح (ولي الأمر) الذي يُقصد به القائد السياسي والعسكري للأمة فهو المقصود بالكلام هنا لأنه الذي تجتمع عنده هذه السلطات المختلفة، وترد إليه أمورها جميعًا، فهذا الذي تجب طاعته في العسر واليسر والمنشط والمكره اتباعًا لقول النبي ﷺ: "السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ فِيمَا أَحَبَّ وَكَرِهَ، مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِذَا أُمِرَ

(١٢٧) تفسير القشيري (٦٢٩/١)

(١٢٨) الحسبة في الإسلام (ص: ١٨٥).

(١٢٩) فتح القدير (١ / ٥٧١)

(١٣٠) مصنفا الماوردي وأبي يعلى كلاهما يحمل اسمًا واحدًا وهو الأحكام السلطانية والولايات الدينية، وكلاهما توزيع للمهام التي يتولاها أولوا الأمر وبيان شروطها وأحكامها.

بِمَعْصِيَةٍ فَلاَ سَمْعَ وَلاَ طَاعَةَ"[١٣١]، قال النووي: "قال العلماء معناه: تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية"[١٣٢]، فلا شك أن طاعة الإمام عنوان على الالتفاف حوله.

وقد كان لهذا الالتفاف مظاهر أخرى كثيرة، وُجّه إليها الصحابة الكرام، وكانوا مثلاً أعلى في تطبيقها، ومن هذه التوجيهات قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور٦٢]، فقد جاء هذا التوجيه بصيغة حاسمة كأنه تعريف لمصطلح المؤمنين مستخدمًا أسلوب القصر والحصر، جاعلاً التصاقهم به في الأمر الجامع جزءًا من هذا التعريف[١٣٣]، وهذه الآية وإن ذكر لها سبب خاص[١٣٤] فلفظها عام في كل أمر جامع سياسي أو عسكري أو علمي أو غير ذلك، قال البغوي: "﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ﴾ يجمعهم من حرب حضرت أو

(١٣١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، حديث ٧١٤٤.

(١٣٢) شرح النووي على مسلم (١٢ / ٢٢٤)

(١٣٣) وليس المراد أن هذا الوصف داخل في تعريف الإيمان المعروف في الشرع –وإن كان من مقتضيات الإيمان– وإنما المراد التأكيد على هذه الصفة في تمييز المؤمنين عن غيرهم من المنافقين، قال ابن عاشور: "فالقصر المستفاد من ﴿إنما﴾ قصر موصوف على صفة، والتعريف في ﴿المؤمنين﴾ تعريف الجنس أو العهد، أي أن جنس المؤمنين أو أن الذين عرفوا بوصف الإيمان هم الذين آمنوا بالله ورسوله ولم ينصرفوا حتى يستأذنوه. . . فجعل هذا الوصف علامة مميزة للمؤمنين الأحقاء عن المنافقين" [التحرير والتنوير ٢٣/٧].

(١٣٤) ذكر العلماء لهذه الآية أكثر من مناسبة نزول فمنهم من قال إنها نزلت وقت حفر المسلمين للخندق قبل غزوة الأحزاب، وبعضهم ذكر أنها نزلت في المستأذن والنبي ﷺ يخطب الجمعة، بينما ذكر آخرون من المفسرين مناسبات أخرى لنزول هذه الآية. انظر: جامع البيان (٣٨٧/١٧) والجامع لأحكام القرآن الكريم (٢٩٣/١٢).

صلاة أو جمعة أو عيد أو جماعة أو تشاور في أمر نزل[١٣٥]، وموضع النبي ﷺ هاهنا هم موضع الإمام، فينطبق هذا الالتفاف على كل إمام للمسلمين"، قال أهل العلم: "وكذلك كل أمر اجتمع عليه المسلمون مع الإمام، لا يخالفونه ولا يرجعون عنه إلا بإذن"[١٣٦]، فالأمر الجامع عام، وتحديد الرسول ﷺ ليس مقصودًا به شخصه ولكن مهمته في قيادة الأمة.

ويصل أمر التوجيه بالالتفاف حول القائد في القرآن الكريم إلى توجيه العتاب واللوم إلى بعض الصحابة رضوان الله عليهم على تخلفهم عن النبي ﷺ ومؤازرته في مثل قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ [التوبة ١٢٠]، فهذه "معاتبة للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه"[١٣٧]، ويلاحظ أن العتاب هنا جاء على طريقة الخبر، أي: ما يجوز لهم ذلك، أو أن هذا ليس من خلقهم، وإن كان ابن عاشور يرى أنه "خبر مستعمل في إنشاء الأمر على طريق المبالغة"[١٣٨] فإنه يمكن أن يلمح من العدول عن الإنشاء إلى الخبر الدلالة على تمكين العتاب وبيان هذه الصفة وهي لزوم النبي ﷺ والالتفاف حوله بحيث يكون التخلي عنها تخليًا عن مقوم عظيم من مقومات إيمانه، فلا يجوز للمؤمنين أن "يختاروا إبقاء أنفسهم على نفسه في الشدائد، بل أُمروا بأن يصحبوه في البأساء والضراء ويلقوا أنفسهم بين يديه في كل شدة"[١٣٩].

---

(١٣٥) معالم التنزيل (٣٥٩/٣)

(١٣٦) معالم التنزيل (٣٥٩/٣)

(١٣٧) المحرر الوجيز (٢٩٧/٨)

(١٣٨) التحرير والتنوير (٥٥/١١)

(١٣٩) الكشاف (ص ٤٥٣) و محاسن التأويل (٣٥٦/٨)

ولا شك أن صحابة النبي ﷺ كان هذا دأبهم وطريقتهم ومستمرّ أمرهم وإن ند عنهم في لحظات يسيرة أوجبت مثل هذا العتاب الذي يعد توجيهًا عامًا لأهمية هذا الأدب مع القائد خصوصًا حين يكون هذا القائد هو رسول الله ﷺ، فالأمم ترى في قادتها أبرارها وفجارها ومؤمنيها وكفارها موضعًا لوجوب الالتفاف والمؤازرة والرغبة في التضحية من أجلهم بغض النظر عن استحقاقهم لهذا الأمر من حيث أشخاصهم ولكن لأن حمايتهم هي حماية لبيضة الأمة.

ومن هنا ذهب جماعة من السلف إلى عموم هذه الآية، وأنها في جميع الأئمة على مر العصور[١٤٠]، قال الوليد بن مسلم: "سمعت الأوزاعي وابن المبارك وابن جابر وعمر بن عبد العزيز يقولون في هذه الآية: إنها لأول هذه الأمة وآخرها"[١٤١] واختار هذه العموم الرازي وتبعه ابن عادل[١٤٢]، قال: ". . . لأن إجابة الرسول واجبة وكذلك غيره من الأئمة"، ونقل كلمة الوليد بن مسلم معقبًا عليها بقوله: "وذلك لأنا لو سوّغنا للمندوب أن يتقاعد لم يُختص بذلك بعض دون بعض فيؤدي ذلك إلى تعطيل الجهاد"[١٤٣]، ومن جميل هذا التوجيه أنه يعقب العتاب بالترغيب في عدم التخلف عن القائد، وذلك بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[التوبة١٢٠]، وفي هذه

---

(١٤٠) اختلف المفسرون في حكم هذه الآية بين خصوص وعموم ونسخ فذهب قتادة إلى خصوصيتها برسول الله ﷺ وذهب الأوزاعي وابن المبارك وغيرهما إلى عمومها كما ذكرت، وذهب ابن زيد إلى أنها كانت في وقت الحاجة ثم نسخت عند قوة الإسلام. انظر: معالم التنزيل (٣٣٨/٢)

(١٤١) معالم التنزيل (٣٣٨/٢)

(١٤٢) تفسير ابن عادل (٢٧٣/١٠)

(١٤٣) تفسير ابن عادل (٢٧٣/١٠)

العبارات المترابطة والألفاظ المنتقاة من الحث والترغيب ما يرفع المعنويات ويعين القلوب على الثبات.

٢- إعداد القوة:

وقد جاء التوجيه إلى ذلك صريحًا لصحابة النبي ﷺ عقب غزوة بدر بقوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [الأنفال٦٠]، فالآية تندب الصحابة الكرام إلى تعبئة القوى وحشدها من أجل إرهاب العدو، ومن لطيف هذا التوجيه أنه جاء بعد غزوة بدر التي أمدّ الله الصحابة فيها بألوان القوة المختلفة من إنزال الملائكة وقذف الرعب في قلوب المشركين فلعل التوجيه في هذه الحالة سببه أنه "لما اتفق لأصحاب النبي ﷺ في قصة بدر أن قصدوا الكفار بلا آلة ولا عدة أمرهم الله ألا يعودوا لمثله ويعدوا للكفار ما يمكنهم من آلة وعدة وقوة"(١٤٤)، والتعبير بقوله: ﴿ مَّا ٱسْتَطَعْتُم ﴾ فيه معنى الاجتهاد في الإعداد، فإن ﴿ ما ﴾ يمكن أن تكون موصولة أو مصدرية، ففي حالة الموصولية يكون المعنى، وأعدوا لهم الذي استطعتم، وفي حالة المصدرية يكون المعنى، وأعدوا لهم استطاعتكم من قوة، أي: قدر ما تستطيعون، وفي كلتا الحالتين إشارة إلى الاستيعاب وقصد الاهتمام بأمر هذا الإعداد.

والملمح الثاني في هذا التوجيه أنه يتكون من عناصر ثلاثة:

الأول: الأمر بالإعداد ويشمل إعداد القوة ورباط الخيل.

---

(١٤٤) التفسير الكبير (١٥/١٨٥)

والثاني: إرهاب الأعداء: وهو المفعول لأجله هذا الإعداد، وقد عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله: ﴿ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾.

والثالث: الترغيب في ذلك والتحبيب فيه بقوله تعالى: ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾.

ويفسر النبي ﷺ القوة بـ "الرمي" فقد روى مسلم عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ ألا وإن القوة الرمي، ألا وإن القوة الرمي، وهو من باب الاهتمام بأهم عناصر القوة، قال أبو حيان: "والظاهر العموم في كل ما يتقوى به على حرب العدو، وما أورده المفسرون على سبيل الخصوص المراد التمثيل كالرمي وركوب الخيل، وقوة القلوب، واتفاق الكلمة والحصون المشيدة وآلات الحرب وعددها..."[(١٤٥)]، وهذا ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، إذ يقرر أن القوة في الحرب "ترجع إلى شجاعة القلب وإلى الخبرة بالحروب والمخادعة فيها فإن الحرب خدعة وإلى القدرة على أنواع القتال من رمي وطعن وضرب وركوب وكر وفر ونحو ذلك"[(١٤٦)].

فحصر النبي ﷺ القوة بالرمي هو من باب الاهتمام والتفضيل ويشهد لذلك حديث عقبة بن عامر أيضًا: "ارْمُوا وَارْكَبُوا، وَلَأَنْ تَرْمُوا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ تَرْكَبُوا"[(١٤٧)]، ولعل تفضيل الرمي مع ظهور القوة في غيره من آلات الحرب "لكون

(١٤٥) البحر المحيط (٤ / ٥٠٧) يراجع النص على الكتاب

(١٤٦) الفتاوى (٢٨ / ٢٥٣)

(١٤٧) أخرجه أحمد في مسنده ٥٧٢/٢٨، حديث ١٧٣٣٧، وقال الأرناؤوط: حديث حسن بطرقه وشواهده. والترمذي في سننه، ، حديث ١٦٣٧ وحسّنه.

الرمي أشد نكاية في العدو وأسهل مؤنة، لأنه قد يرمي رأس الكتيبة فيصاب فينهزم من خلفه"[١٤٨].

فإن الاقتحام البشري البدني لصفوف العدو واحتلال مواقعه لابد أن يكون تاليًا لهذه الخطوة حتى تؤتي ثمرها، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾ فإذا كان الرمي آلة إنهاك للعدو، وشلٍّ لقدراته، فإن آلات الاقتحام المتمثلة في الآية في رباط الخيل هي أداة إنهاء المعركة بالظفر الحقيقي متمثلاً في احتلال المواقع والزحف والتقدم والاستيلاء على المواقع الإستراتيجية وهذا كله كانت أداته الخيل فيما مضى، ثم أصبح لها أدوات مختلفة ومتنوعة على مرّ العصور، الأمر الذي جعل الإفادة من هذه الآلات الحديثة لا يخرج عن معنى الآية "والحكم يدور مع علته، فإذا كان شيء موجودًا أكثر إرهابًا منها كالمعِدّات البرية والهوائية المعدّة للقتال التي تكون النكاية فيها أشد كانت مأمورًا الاستعداد بها والسعي لتحصيلها، حتى إنها إذا لم توجد إلا بتعلم الصناعة وجب ذلك، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب".[١٤٩]

وفيما سبق إشارة إلى أن التوجيهات القرآنية للصحابة تفتح آفاقًا واسعة لاستفادة الأمة منها على مر العصور، ولعل هناك إشارة إلى مثل هذه المعنى في حديث «سَتُفْتَحُ عَلَيْكُمْ أَرَضُونَ، وَيَكْفِيكُمُ اللهُ، فَلَا يَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ»[١٥٠]، فإعداد القوة ماضٍ ما وجد عدو للمسلمين.

---

(١٤٨) فتح الباري (٩١/٦)

(١٤٩) تفسير ابن سعدي (٢٢٣/٢)

(١٥٠) أخرجه مسلم في صحيحه ١٥٢٢/٣، حديث ١٩١٨.

٣ – تحصين الجبهة العسكرية:

إن تحصين الجبهة العسكرية مَهمة متشابكة يدخل فيها الجانب السياسي والجانب الاجتماعي والجانب القتالي، وقد اهتم القرآن الكريم بالإشارة إلى هذا الهدف المهم وإلى عناصره المختلفة خصوصًا في حديثه عن الغزوات وما صاحبها من ظروف قتالية أو اجتماعية أو سياسية، وحسبي أن أشير إلى بعض عناصر هذا التحصين ملخصة فيما يلي:

أ) الثقة في الله وعدم الاغترار بالقوة:

لقد نسب الله عز وجل المعسكر المسلم إلى نفسه فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ [الصافات ١٧١ -١٧٣]، وذلك لأنهم حزب الله تعالى الذين يصدرون عن قوله ويأتمرون بأمره، قال الشوكاني: "والمراد بجند الله هم حزبه وهم الرسل وأتباعهم"(١٥١)، ومن أجل ذلك وجب على هؤلاء الجند المنسوبين لله تعالى أن يكون اعتقادهم في نصره وثقتهم فيه على قدر نسبتهم إليه، وقد وعد الله تعالى صحابة النبي ﷺ بنصره في مواضع كثيرة، ومنّ عليهم بهذا النصر وكما نسبه إلى نفسه، فقد نسب النصر إلى نفسه، يقول الله تعالى في غزوة بدر: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [الأنفال ٧ – ١٠]، وسياق الآية واضح في أن

(١٥١) فتح القدير (٤ / ٤٠١)

الوعد بالإمداد لم يكن إلا بشرى لهم وطمئنة لقلوبهم فهذه الأسباب ليست هي النصر ولا هي التي تصنعه ﴿ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ ﴾ وفي هذا إشارة إلى "أن يكون توكلهم على الله لا على الملائكة. . . وكل من كان كذلك لم يتوقع النصر إلا من رحمته، ولا الإعانة إلا من فضله وكرمه"(١٥٢)، ولو تأولنا صورة هذا النصر وواقعه لتكشف لنا أنه نصر لم يكن للنبي ﷺ ولا لصحابته فيه يد، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله: ﴿ وَلَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ ﴾ [آل عمران١٢٣]، أي: "لقلة العَدَد والعُدَد"(١٥٣)، قال أبو حيان: "لما أمرهم بالتوكل عليه ذكّرهم بما يوجب التوكل عليه وهو ما سنّ لهم ويسّر من الفتح والنصر يوم بدر وهم في حال قلة وذلة؛ إذ كان ذلك النصر ثمرة التوكل عليه والثقة به"(١٥٤).

إلا أنه يظل التعبير ﴿ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞ ﴾ يخالط القلوب والأذهان ويلح على معاني الضعف الشديد وقلة الحيلة التي كان فيها الصحابة يوم بدر، وكيف كان هذا النصر خارجًا تمامًا عن نطاق قدراتهم القتالية.

ومن هنا يكون التوجيه القرآني لصحابة النبي ﷺ بصدق التوكل والثقة في الله سبحانه وتعالى، وفراغ اليد مما سواه، وهكذا كانوا رضوان الله عليهم في المواطن كلها استجابة لله سبحانه وتعالى، ويقينًا بأن "النصر من عنده، سواء قلّ الجمع أو كثر"(١٥٥)، كما أن هذه الثقة يجب أن تأخذ شكلاً عمليًا بأن يُردّ الفضل لله سبحانه وتعالى في حالة النصر ويُتجنّب الاغترار بالقوة عند الدخول في المعركة، وهذا الطرف

---

(١٥٢) التفسير الكبير (٣/٣٥٤)

(١٥٣) زاد المسير (١/٤٥٠)

(١٥٤) البحر المحيط (٣/٥١)

(١٥٥) تفسير القرآن العظيم (٤/ ١٢٥)

الثاني من القضية هو ما فات الصحابة الكرام في غزوة حنين حينما رأوا قوتهم وكثرتهم، فقال بعضهم: "لن نغلب اليوم من قلة" فانهزموا، "قيل: كانوا اثني عشر ألفًا، وقيل: أحد عشر ألفًا وخمس مئة، وقيل: ستة عشر ألفًا، فقال بعضهم: لن نغلب اليوم من قلة، فوكلوا إلى هذه الكلمة"(١٥٦)، وكانت هذه الهزيمة عند أول اللقاء "عتابًا إلهيًا على نسيانهم التوكل على الله في النصر، واعتمادهم على كثرتهم"(١٥٧)، فجاء التوجيه القرآني شديد الوقع، قوي التأثير في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة٢٥]، قال أبو السعود: " ﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي برحبها وسعتها. . . أي لا تجدون فيها مقرًا تطمئن إليه نفوسكم من شدة الرعب ولا تثبتون فيها كمن لا يسعه مكان"(١٥٨)، وأما قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ ففيها إيحاء بحالة الهلع التي أصابتهم منذ أول ساعات المعركة من شدة عدوهم عليهم على الرغم من كثرتهم. ثم يبقى الأثر التربوي لهذه الغزوة كما عبّر عنه البقاعي بقوله: "كان الإعجاب سمًا قاتلاً للأسباب، أدبنا الله سبحانه في هذه الغزوة بذكر سوء أثره لنحذره"(١٥٩).

وقد أسكن الله سبحانه وتعالى قلوبهم بعد ذلك، وأعاد الطمأنينة إليها إذ يقول: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ

(١٥٦) الجامع لأحكام القرآن الكريم (٩٢/٨)
(١٥٧) التحرير والتنوير (٥٩/١٠)
(١٥٨) أبو السعود (١٣٦/٣)
(١٥٩) نظم الدرر (٢٩٣/٣)

كَفَرُوٓاْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [التوبة٢٦]، وفتح الله عز وجل لهم باب التوبة والإنابة(١٦٠)، طمأنة لنفوسهم وحثًا لهم على مراجعة موقفهم.

ب) سد الثغرات:

جُعل القائد ليوزع أدوار المقاتلين ويملأ بهم المواطن المختلفة، إما دفاعًا أو هجومًا، أو استطلاعًا أو حماية للظهور، ولا يقلّ أحد هذه الأدوار عن صاحبه في الأهمية(١٦١).

ويشير القرآن الكريم في هذا الموضع العظيم إلى زلة بعض صحابة النبي ﷺ ومخالفتهم يوم أحد، فقد وضع النبي ﷺ الرماة فوق الثنية المقابلة لجبل أحد، التي عرفت بجبل عينين، وأصدر إليهم أمره الحاسم: "إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا

---

(١٦٠) وهذا ما اختاره العلامة الشنقيطي في أضواء البيان، قال: " وأشار هنا إلى توبته على من تولى يوم حنين بقوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، كما أشار بعض العلماء إليه " أضواء البيان (٥٠٧/٢)

(١٦١) ولذلك يقول النبي ﷺ: "طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ " [البخاري في الجهاد ح٢٨٨٧]، وقد اختار النبي ﷺ موضعين من المواضع التي تتسم بالمشقة وعليهما معول كبير في بداية الحرب ونهايتها، قال العيني: " قوله: إن كان في الحراسة، أي: في حراسة العدو، خوفًا أن يهجم العدو عليهم، وذلك يكون في مقدمة الجيش، والساقة مؤخرة الجيش. . . وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة وأكثر آفة، الأول عند دخولهم دار الحرب، والآخر عند خروجهم منها "[عمدة القاري ٤٢١/١١]. والمقصود بكونه في الساقة والحراسة، عدم أنفته منها من ناحية، ثم استقراره فيها، وملازمته لها، وعدم تركه إياها من ناحية ثانية، ولا شك أن إقامة الجندي في الموضع الذي وضعه فيه القائد هو أكفل الطرق للنصر لأنه من باب سد الثغرات، وفي ذلك إعانة للقائد على أن يتخذ قراراته وهو مطمئن إلى كفاية جنوده كلٌ في موضعه، فحينما يأمر بالتقدم يعلم أن خلف ظهورهم من يحميهم، وحينما يأمر بالتأخر يعلم أن في صدرهم من يستطلع لهم ويحذرهم.

مكانكم هذا، حتى أرسل إليكم"[١٦٢]، غير أن الرماة لما رأوا بشائر النصر وهزيمة المشركين، ورأوا الغنائم والأسلاب في أيدي المسلمين شدهم ذلك ظنًا منهم أن المعركة قد انتهت، وحدث الخطأ القاتل الذي قلب موازين المعركة وحول النصر الكبير إلى خسائر عظيمة لحقت بالمسلمين، وهو أمر تكفلت كتب السير بإظهاره ويكفي أنه كان فرصة لكفار مكة لكي يشفوا غليلهم من الجيش الإسلامي الذي أذل كبرهم وأرغم أنوفهم يوم بدر، حتى قال أبو سفيان بن حرب في آخر المعركة: "يوم بيوم بدر والحرب سجال"[١٦٣]، ويصور القرآن الكريم في لفظ موجز، وعبارة معبّرة مركزة مرحلة النصر وكيف انقلبت إلى هزيمة وسبب ذلك في إشارة توجيهية قوية للصحابة الكرام إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران١٥٢]، فالآية توضح هنا التدرج والتغيير فيما يلي:

١ – تبدأ بمنة الله تعالى عليهم بإنجاز وعده إياهم بالنصر في قوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ "ومعنى تحسّونهم: تقتلونهم وتستأصلونهم"[١٦٤]، فالمعنى: تقتلونهم قتلاً ذريعًا سريعًا شديدًا[١٦٥].

---

(١٦٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، حديث ٣٠٣٩.

(١٦٣) السيرة النبوية لابن كثير (٣ / ٤٩)

(١٦٤) أضواء البيان (٣٣٩/١)

(١٦٥) انظر: تفسير الثعالبي (١٨٤/٣)

٢ – تُبيّن سبب التحول الكبير في موازين المعركة بقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ وهو بيان واضح لسبب الانقلاب في الموازين وهو التنازع الذي شجر بين الصحابة في تفضيل الغنائم على البقاء في موقعهم الذي أمرهم الرسول ﷺ، وعصيان الرماة لنبيهم وقائدهم بانصرافهم للغنائم.

٣ – تذكر نتيجة هذه الحالة من الفشل والتنازع والمعصية وهي الهزيمة بعد النصر وقد عبّر القرآن عنها تعبيرًا لطيفًا وهو قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ ولعله من باب إتباع الشدة باللين مداواة للجروح بعد أن أحدث أثره التربوي المراد، فكأنه جعل هذه المصيبة الضخمة التي أصابت المسلمين في أحد صرفًا من الله للمسلمين عن الكفار، قال الألوسي: ﴿ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ ﴾ أي كفكم عنهم حتى تحولت الحال من الغلبة إلى ضدها"(١٦٦).

٤ – تُبقي على الأمل في نفوس الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، مُعالِجة آثار هذا العتاب السابق مُجنبةً إياهم ما يمكن أن يحدث من يأس، أو عميق حزن قد يعوق عطاءهم المستقبلي، وذلك ببشارة القرآن إياهم بالعفو عن هذه الزلة في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، على اعتبار أن الخطأ أمر لا ينفك عنه البشر، وربما كان الذي تعلم من خطئه أكثر وعيًا للدرس من الذي تعلم من خطأ غيره، خصوصًا أن خطأ الصحابة هذا قد تسبب في أذى مباشر وقع على النبي ﷺ، إذ تكالب عليه جند الكفار ورموه من كل جانب وكسروا رباعيته الشريفة.

---

(١٦٦) روح المعاني (٤/٤١٢)

وهو هنا يجمع بين التوجيه للخطأ وبين معالجته المعالجة التربوية الناجعة التي تبيّن حجمه وسببه ونتيجته، ثم لا تُغفل مواساة صاحبه ومداواة كسره نتيجة هذا العتاب، ثم تزيد على ذلك أن تقرر أن هذا الخطأ لا يعني عدم صلاحيتهم بعد ذلك لممارسة دورهم في دعم النبي ﷺ ونصرته، فيشير القرآن الكريم إلى استمرار هذه الصلاحية، ورشاد الرأي وسداده في الجملة بقوله للنبي ﷺ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] وما نظن هذه الطريقة إلا أرفع درجات التوجيه وأسماها.

ج) عدم الاستسلام للشائعات:

تعد الحرب النفسية من الأسلحة الفتاكة خصوصًا في أثناء المعركة، ومؤداها الاستعمال المخطط للدعاية، ومختلف الأساليب النفسية للتأثير على آراء ومشاعر وسلوكيات العدو، بطريقة تسهّل الوصول للأهداف، ومن هنا ندرك خطورة هذا الأسلوب في إرهاب الخصم، بما يمكن أن يقلب موازين القوى، ويؤثر في نتيجة المعركة.

وقد استخدم الكفار والمنافقون أسلوب الشائعة في غزوة أحد للفتّ من أعضاد المسلمين، وإشاعة الوهن في قلوبهم ونفوسهم وشل قدرتهم القتالية، وكانت الشائعة المختارة شديدة الوقع في نفوس المسلمين وهي إدعاؤهم أن رسول الله ﷺ قد قتل، ولا شك أن مثل هذا الخبر -وهو خبر قتل القائد - من أخطر ما يمكن تأثيرًا في نفوس الجنود، ومن مظاهر هذا التأثر ما ذكر الواحدي أنه لما كان يوم أحد انهزم الناس فقال بعض الناس: قد أصيب محمد، فأعطوهم بأيديكم، فإنما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إن كان محمد قد أصيب، ألا تمضون على ما مضى عليه نبيكم حتى تلحقوا به، فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ

ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ۚ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٤٤ – ١٤٨].

ومما سبق نستخلص ما يلي:

١ – أن الكفار والمنافقين قد بثوا هذه الشائعة بغية تفكيك الجيش المسلم وإفساد قدراتهم على القتال، ولا شك أنها فكرة شيطانية مؤثرة، إذ يذكر الشوكاني أنه لما أصيب النبي ﷺ في يوم أحد "صاح الشيطان قائلاً: قد قتل محمد، ففشل بعض المسلمين حتى قال قائل: قد أصيب محمد فأعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم، وقال آخر: لو كان رسولاً ما قُتل"(١٦٧).

٢ – أن تأثير هذه الشائعة في نفوس الصحابة كان وقتيًا، ولم يصل إلى درجة الهزيمة النفسية وتداعياتها من الوهن الشامل الذي تحدثه الإشاعات في المعارك، فعلى الرغم من اختلافهم في هذا الأمر إلا أن الصوت الأعلى -كما تدل الروايات - كان صوت المحاربين لهذه الشائعة، والمثابرين على مواصلة القتال.

٣ - مجيء التوجيه القرآني في صورة واضحة مجلية لحقيقة الأمر ثم مبينة لمدى خطأ من يضعف ويتخاذل نتيجة لوقوع هذه الحقيقة حتى في حالة وقوعها وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ

(١٦٧) فتح القدير (١ / ٤٦٨)

﴿ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾، فالقرآن الكريم لم يتعرض هنا للشائعة من حيث كونها شائعة، اكتفاءً بأنه قد اتضح في الواقع والعيان كذبها، وإنما استغلها ليبني نفوس الصحابة رضوان الله عليهم على التفكير المستقيم حتى لو افترض صدقها وصحتها معتمدًا على أن قضية موت النبي أو القائد ينبغي أن تكون واضحة في النفوس ومتوقعة حتى لا يحدث الانقلاب النفسي والعملي في حالة حدوثها، وذلك أن مقتل القادة موجود في تاريخ الأمم وأنه يتحدد مدى صلابة الأتباع بمدى تعاملهم مع خبر موتهم وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ في قراءة: ﴿ قُتِل ﴾ اختارها أبو جعفر وقال: "وأما الذين قرأوا ذلك ﴿ قُتِل ﴾ فإنهم قالوا: إنما عنى بالقتل النبيَّ وبعض من معه من الربيين دون جميعهم"(١٦٨). وقال الزمخشري: "والمعنى: فما وهنوا عند قتل النبي ﷺ وما ضعفوا عن الجهاد بعده وما استكانوا للعدو، وهذا تعريض بما أصابهم من الوهن والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ، وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين"(١٦٩).

وقد سبقت الإشارة إلى خطورة الشائعات وموقف المسلم منها بشيء من البسط(١٧٠)، إلا أنني ركزت هنا على جانب الشائعة وارتباطها بالحرب النفسية وأثرها في المعسكر الذي تتفشى فيه والدور القرآني في توجيه الصحابة حيالها، ولذا جعل الله تعالى إشاعة ما يصل إلى المرء من أخبار فيما يتعلق بالجوانب الأمنية من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ﴾ [النساء:

(١٦٨) جامع البيان ط (٦/ ١١٠).

(١٦٩) الكشاف (٤٥١/١)

(١٧٠) راجع صفحة ٢١ من البحث.

٨٣]، قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: "والذين أذاعوا به قوم إما منافقون وإما آخرون ضعفاء"(١٧١)، "قال جمهور المفسرين: الآية في المنافقين. . . وهي نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه، والمعنى: أن المنافقين كانوا يشرئبون إلى سماع ما يسوء النبي ﷺ في سراياه، فإذا طرأت لهم شبهة أمن للمسلمين أو فتح عليهم حقّروها وصغّروا شأنها، وأذاعوا بذلك التصغير والتحقير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف للمسلمين أو مصيبة عظّموها وأذاعوا ذلك التعظيم"(١٧٢).

المبحث الثالث: أساليب التوجيه القرآني للصحابة

اتخذ التوجيه القرآني لصحابة النبي ﷺ أساليب متعددة وطرقًا متنوعة تتناسب مع طبيعة الموقف ومقتضيات الإعداد السامي، وقد تعرض البحث في ثنايا معالجاته السابقة لبعض هذه الطرق والأساليب، إلا أن إفرادها بمبحث خاص يركز الفائدة ويزيد النفع كما يسمح بمزيد من الأمثلة التي تحتوي على توجيهات قرآنية للصحابة الكرام.

فمن أهم الأساليب القرآنية في توجيه الصحابة ما يلي:

١ – التعليم وبيان الخطأ:

نبه القرآن الكريم الصحابة إلى السلوك الصحيح وبين لهم الخطأ الذي يقع فيه بعضهم، كما في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ الآية.

---

(١٧١) الدرر المنثور (٢ / ٦٠١)

(١٧٢) المحرر الوجيز (١٨٨/٤)

[الأحزاب ٥٣]، فالآية توجه إلى أدب مهم مع رسول الله ﷺ قصّر فيه بعض الصحابة، إذ كان بعضهم يأتي إلى طعام النبي ﷺ قبل موعد نضجه وتهيئته ويطيل جالسًا حتى يوضع، ثم يأخذهم الاستئناس بالحديث بعد الطعام فيمكثون مع ما في ذلك من مشقة على النبي ﷺ وعدم وعي بأحواله وظروفه، "لأن للنبي ﷺ أوقاتًا لا تخلو ساعة منها عن الاشتغال بصلاح الأمة، ويجب ألا يشغل أحد أوقاته إلا بإذنه، ولذلك قال تعالى: ﴿ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ ، وقد ذكر أنس رضي الله عنه سبب نزول الآية بقوله: "لما تزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش دعا القوم فطعموا، ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا، فلما رأى ذلك قام، فلما قام، قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبي ﷺ يدخل فإذا القوم جلوس، ثم إنهم قاموا فانطلقت فجئت فأخبرت النبي ﷺ أنهم قد انطلقوا، فجاء حتى دخل، فذهبت أدخل فألقي الحجاب بيني وبينه، فأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ ﴾ الآية[١٧٣].

ومن خلال الروايات المتعددة لهذه الواقعة يظهر أن النبي ﷺ لما دعا الصحابة لوليمة زينب رضي الله عنها، جاءوا مبكرين قبل نضج الطعام، ثم جلس بعضهم بعد الطعام يتسامرون والنبي ﷺ ينتظر انصرافهم ليدخل على زينب، وأراد أن يشعرهم بذلك فقام من المجلس وخرج من الحجرة ثم دخل مرة أخرى فلم يقوموا حتى رأوا تكرار ذلك من النبي ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية تعليمًا للصحابة رضوان الله عليهم وبيانًا لهذا الخطأ، فالملاحظ أن هذا التوجيه يشتمل أمورًا عدة:

الأول: نهي الصحابة عن دخول بيت النبي ﷺ في أي وقت شاءوا، والاستئذان عند إرادتهم ذلك.

---

(١٧٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب "لا تدخلوا بيوت النبي"، حديث ٤٧٩١.

الثاني: توجيههم إلى بعض الآداب التي ينبغي أن يتحلوا بها إذا أتوا بيوت النبي ﷺ وطعامه ومنها:

- عدم المكث في بيت النبي ﷺ قبل الطعام وانتظار نضجه، قال مجاهد وقتادة وغيرهما: غير ناظرين إناه: غير متحيّنين نضجه واستواءه(١٧٤).
- الإجابة إلى تناول الطعام إذا دعوا إليه.
- الانصراف من بيت النبي ﷺ بعد الطعام، وعدم البقاء مستأنسين بالأحاديث التي تدور بينهم، قال البقاعي: "فانتشروا: أي: اذهبوا حيث شئتم في الحال ولا تمكثوا بعد الأكل"(١٧٥).

وهذا التفصيل في البيان يدل على الاهتمام بتعليم الصحابة هذا الأدب خطوة خطوة، والعناية بالتفاصيل المتعلقة به، ثم تبين الآية السبب في هذا التوجيه بأن ذلك التصرف منهم كان يؤذي النبي ﷺ فيستحيي من إخراجهم، قال المباركفوري: " ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: المكث وإطالة الجلوس، ﴿كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِۦ مِنكُمْ﴾ أي: من إخراجكم"(١٧٦)، ولكن الله تعالى لا يستحيي من بيان الحق وإظهار خطأ المخطئ، حتى يعرف صحابة النبي ﷺ الطريقة الصحيحة في زيارته عليه الصلاة والسلام.

٢ – الحث والتشجيع:

وهو أسلوب فعال في التوجيه، لأنه وسيلة إلى إيقاظ الهمم وشحذها نحو الشيء الذي يُطلب فعله، وقد أمر الله عز وجل نبيه بحث المؤمنين على أمور كثيرة، نذكر منها على سبيل المثال، حثهم على جهاد العدو، ويظهر ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا

(١٧٤) تفسير القرآن العظيم (٦/٤٥٤)
(١٧٥) نظم الدرر (٦/١٢٦)
(١٧٦) تحفة الأحوذي (٩ / ٥٨)

ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[(١٧٧)] [الصف ١٠ -١١]، قال الشنقيطي: "والتجارة هنا فُسرت بالإيمان بالله ورسوله وبذل المال والنفس في سبيل الله، فما هي المعاوضة الموجودة في تلك التجارة العامة؟ بيّنها الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة١١١]، فهنا مبايعة وهنا بشرى وهنا فوز عظيم"[(١٧٨)]، ومن الحث على الجهاد بيانُ ثمراته وهي كثيرة ومتنوعة يذكرها الله سبحانه وتعالى مجملة تارة ومفصلة تارة أخرى، ومن مواطن التفصيل هذه الآية التي مثلت بها وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فإنه بعد أن ذكر الجهاد ذكر ثمرته فقال سبحانه: ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف: ١٢ -١٣]، فالآية تفصل ثمرات الجهاد الدنيوية والأخروية، فأما الأخروية فمغفرة الذنوب ودخول الجنة بما فيها من نعيم مقيم، وأما الدنيوية فهي النصر الذي تحبه نفس الإنسان فهو يعد من عاجل بشرى المؤمن.

---

(١٧٧) أخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير أنه لما نزلت هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قال المسلمون: لو علمنا ما هذه التجارة لأعطينا فيها الأموال والأهلين فبيّن لهم التجارة فقال: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية وهذا ونحوه يدل على مباشرة الصحابة لهذه الآية، يراجع تفسير ابن أبي حاتم (٣٣٥٤/١٠).

(١٧٨) أضواء البيان (١٢٠/٨)

٣ – التنفير من أفعال الكفار والمنافقين:

ومن هذه الأساليب توجيه القرآن الكريم للصحابة عن طريق إطلاعهم على صفات لأناسٍ يعيشون بين ظهرانيهم، مبينًا المفاسد التي في هذه الصفات، ولا شك أن الصحابة هم أول المعنيين بمعرفة هذه الصفات إذ هم أولى من الكفار والمنافقين بمعرفتها لأنهم المستفيدون من ذلك، فمن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة ١٠٤]، فهذه دعوة صريحة لصحابة النبي ﷺ إلى عدم التشبه باليهود الذين كانوا يقولون: راعنا للنبي ﷺ بقصد أذاه، فعلى الرغم من أن لفظة ﴿ رَٰعِنَا ﴾ لا عيب فيها من حيث الأصل إلا أن ارتباطها بطريقة اليهود في اختيارها وتوجيهها للنبي ﷺ بمعناها الموجود في لغتهم العبرية كان سببًا في منع الصحابة أن يقولوها، "فالنهي عن أن يقول المؤمنون كلمة لا ذمّ فيها ولا سخف، لا بد أن يكون له سبب، وقد ذكروا في سبب نزولها أن المسلمين كانوا إذا ألقى عليهم النبي ﷺ الشريعة والقرآن يتطلبون منه الإعادة والتأني في إلقائه حتى يفهموه ويعوه، فكانوا يقولون له: راعنا يا رسول الله، أي: لا تتحرج منا وارفق، وكان المنافقون من اليهود يشتمون النبي ﷺ في خلواتهم سرًا، وكانت لهم كلمة بالعبرانية تشبه كلمة راعنا بالعربية ومعناها في العبرانية سبّ"(١٧٩).

فالنهي الموجه للصحابة في هذه الآية من أجل أن اليهود "يقولونها، ويعنون بها معنى الرعونة، على وجه الإذاية للنبي ﷺ.. فنهى الله المسلمين أن يقولوا هذه الكلمة لاشتراك معناها بين ما قصده المسلمون وما قصده اليهود"(١٨٠).

---

(١٧٩) التحرير والتنوير (٦٣٢/١)

(١٨٠) التسهيل لابن جزي (٩٣/١)

وكما كان النهي عن كلمة صحيحة في العربية وذلك لمشابهتها بما يقوله اليهود ويقصدون به معنى آخر، كان النهي عما انطوت عليه نفوس هؤلاء اليهود أو المنافقين من سيء الخصال أو فعلوه من سيء الفعال، فمن أمثلة النهي عن التشبه بهؤلاء في مقالهم قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ﴾ [آل عمران١٥٦]، فقد تضافرت الروايات على أن هؤلاء القائلين هذه المقولة هم عبد الله بن أبي سلول وأصحابه"، روي ذلك عن مجاهد من طريق أبي نجيح وعن غيره من التابعين[١٨١]، فمن الواضح أنهم نُهوا عن ما اعتقده المنافقون من أن بقاء إخوانهم معهم في بيوتهم وعدم تعرضهم للخروج لغزوٍ أو تجارة أو غيرها هو عصمة لهم من الموت أو القتل، قال أبو السعود: "ليس المقصود بالنهي عدم مماثلتهم في النطق بهذا القول بل في الاعتقاد بمضمونه والحكم بموجبه"[١٨٢]، وتعقبه القاسمي بقوله: "بل الآية تفيد الأمرين، أعني: حفظ الاعتقاد المقصود أولاً وبالذات، وحفظ المنطق مما يوقع في إضلال الناس ويخل بالمقام الإلهي"[١٨٣]، وهذا التوجيه المباشر لصحابة النبي ﷺ في لفت نظرهم إلى مساوئ اليهود والمنافقين التي ذكرت في غير آية من كتاب الله سبحانه وتعالى كقوله: ﴿ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ ﴾ [المائدة ٦٤]، وقوله في المنافقين: ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ ﴾ [المنافقون٧]، وغير ذلك، فالمراد من ذلك أمران:

---

(١٨١) جامع البيان (٣٣١/٧). الدر المنثور (١ / ٢٥٢)

(١٨٢) تفسير أبو السعود (١٠٣/٢)

(١٨٣) محاسن التأويل (٢٧٠/٤)

الأول: تقبيح الكفار والمنافقين وإظهار صورتهم السيئة للمؤمنين.

والثاني: تنفيرهم من هذه الأفعال والصفات ببيان سوئها وفسادها.

٤ – العتاب:

العتاب وسيلة تربوية هادفة إذا استجمع شروطه من حسن التنبيه على الخطأ ومراعاة حال المخاطب ومدى تجاوبه مع هذه الوسيلة، فليس العتاب كله شرًا، بل منه ما يزيد المودة ويعبّر عن عمق الحرص وصدق الإخلاص، والمعنى اللغوي قريب من هذا، قال الأزهري: "التعتّب، والمعاتبة، والعتاب، كل ذلك مخاطبة الإدلال، وكلام المُدلِّين أخلاءهم طالبين حسن مراجعتهم"(١٨٤)، وفي هذا يقول الشاعر:

أبلغ أبا مَسْمَع عني مغلغلة

وفي العتاب حياة بين أقوام(١٨٥)

فالعتاب بهذه الصورة فيه حياة للنفوس والقلوب، ومراجعة للأخطاء، ويزيد فضله، وتكثر فوائده حينما يأتي من رب رحيم ودود، متجهًا إلى قلوب صحابة النبي ﷺ الذين آمنوا به وعرفوا أن في مخاطبته إياهم البركة والمصلحة لهم في دينهم ودنياهم.

وقد تعددت مواطن العتاب في القرآن الكريم مرّ ذكر بعضها في ثنايا هذا البحث، وهو يتنوع بين عتاب خفيف رفيق، وبين عتاب شديد، إلا أنه في كلا الحالين يمتزج بمداواة آثاره من مدح للمؤمنين، أو بيان لعلة هذا العتاب أو غير ذلك من الأساليب، فمن العتاب الرفيق قوله تعالى وقد فرض على المؤمنين تقديم الصدقات بين يدي مناجاتهم النبي ﷺ في أول الأمر: ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ [المجادلة١٣]، فمعنى الإشفاق هنا "الخوف من المكروه، أي: خفتم الصدقة، وشق

(١٨٤) تهذيب اللغة للأزهري (٤/٢٧٠)

(١٨٥) أمالي اليزيدي (ص: ٣٧). ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين (٣/٢٠٢) إلى الشاعر همام الرقاشي.

عليكم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات"[١٨٦]، أو "أخفتم العيلة والفاقة إن قدمتم بين يدي نجواكم صدقات"[١٨٧]، وعلى كلا المعنيين وهما متقاربان فالتعبير "عتاب للمؤمنين رقيق رفيق. . . والغرض لا تخافوا فإن الله يرزقكم لأنه غني بيده خزائن السموات والأرض، وهو عتاب لطيف"[١٨٨].

وأما الشديد فمثاله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ﴾ [الصف٢ - ٣]، فهو نكير على طوائف بعضهم منافق يقولون نحن منكم ومعكم، ثم يظهرون من أفعالهم خلاف ذلك، وبعضهم شباب من المسلمين يقولون: فعلنا كذا وكذا في الغزو ولم يفعلوا، وغير هؤلاء ممن يصدر منهم ما تنطبق عليه الآية، فالاستفهام هنا "يراد به الإنكار والتوبيخ"[١٨٩]، ومن ثم كان: "عتابًا شديدًا على أمر حدث من طائفة منهم، أمر يكرهه الله أشد الكره، ويمقته أكبر المقت، ويستفظعه من الذين آمنوا على وجه الخصوص"[١٩٠].

وقد حرص القرآن الكريم على ذكر السبب الذي توجّه العتاب من أجله كما في قوله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمۡ فِي ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيۡنِ وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ﴾[النساء ٨٨]، وأصح ما ذكر في سببها ما أخرجه البخاري "أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى أحد رجع ناس ممن خرجوا معه، فكان

---

(١٨٦) تفسير ابن عادل (٥٥٠/٨)

(١٨٧) معالم التنزيل (٣٤٧/٤)

(١٨٨) صفوة التفاسير (٣٤٢/٣)

(١٨٩) البحر المحيط (٢٥٨/٨)

(١٩٠) في ظلال القرآن (٣٥٥١/٦)

أصحاب رسول الله ﷺ فيهم فرقتين، فرقة تقول: نقتلهم، وفرقة تقول: لا، هم المؤمنون، فنزلت الآية"[١٩١]، وقد احتوت الآية من أساليب العتاب على ثلاثة: فقد بدأت بهذا الاستفهام الاستنكاري كما مرّ، وهو ينعى على المؤمنين اختلافهم في شأن هؤلاء المنافقين، ثم يبيّن أن رجوعهم عن الغزو هو إركاس من الله سبحانه وتعالى بسبب ما كسبوا، أي: حوّلهم من الحال الحسنة إلى الحال السيئة، ثم يأتي بعد ذلك السؤال التعجبي وهو قوله تعالى: ﴿ أَتُرِيدُونَ أَن تَهۡدُواْ مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ ﴾، فإن من أضله الله لا سبيل إلى هدايته فيكون تصوره مدعاة للعجب والعتب. ومن الواضح أن سبب هذا العتاب هو الحرص الرباني على توحّد نظرة الأمة تجاه المارقين لأنها قضية مصيرية لا تصح فيها الفرقة، قال القاسمي: "وذلك أن فرقة من المؤمنين كانت تميل إليهم وتذب عنهم وتواليهم وفرقة منهم تباينهم وتعاديهم، فنُهوا عن ذلك وأمروا أن يكونوا على نهج واحد في التباين والتبرؤ منهم، لأن دلائل نفاقهم وكفرهم ظاهرة جلية، فليس لكم أن تختلفوا في شأنهم"[١٩٢].

وذكر السبب في العتاب الرباني بالنسبة للمؤمنين تتضح فيه الرأفة مهما اشتد؛ إذ يبدو في الآيات ما يُشعر بتلطف السياق القرآني على الرغم من وجود العتاب، فهو يذكر السبب في هذه المعاتبة -وفي ذكر السبب تخفيف من وطأة العتاب - إذ يقول سبحانه: ﴿ وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ ﴾ [النساء ٨٩]، إشارة إلى "أن أعز الأشياء وأعظمها عند جميع الخلق هو الدين، لأن ذلك هو الأمر الذي يُتقرب إلى الله تعالى ويُتوسل به إلى طلب السعادة في الآخرة، وإذا كان كذلك كانت العداوة الحاصلة

(١٩١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب "فمالكم في المنافقين فئتين"، حديث ٤٥٨٩.
(١٩٢) محاسن التأويل (٣٤٧/٥)

بسببه أعظم أنواع العداوة، وإذا كان كذلك امتنع طلب المحبة والولاية في الموضع الذي يكون أعظم موجبات العداوة حاصلاً فيه"(١٩٣).

فتنوع أساليب العتاب ومزجه بما يظهر الغرض منه، وهو تقويم سلوك الصحابة رضوان الله عليهم، أو تصورهم، أو ما يبرز الدافع إليه وهو الحرص عليهم وعلى قوة دينهم وإيمانهم، أو ما يشير إلى السبب فيه من خطورة نتائج الأمر المعاتب فيه، أو غير ذلك من الأمور التي تخفف من وقع العتاب وتوجهه الوجهة التربوية الصحيحة، وتقف حاجزًا دون سلبياته مع إحراز إيجابياته هذا هو النهج الصحيح في التوجيه والتربية.

٥ – مخاطبة العقل والعاطفة:

التوجيه الرباني للصحابة الكرام يمثل في عمومه موعظة، وحتى تُحدث الموعظة أثرها في النفس يحسن أن تخاطب مداخل التأثير فيها، فتارة يتعظ المرء بما يخاطب ثوابت العقل ويتوافق مع أحكامه وتقديراته، وتارة يتعظ بما يخاطب حنايا عاطفته ويثير كوامنها، وبناء على هاتين الركيزتين يستمال القلب فيستجيب للتوجيه ويسارع فيه، وذلك "أن ضابط الوعظ هو الكلام الذي تلين له القلوب"(١٩٤).

ومن هنا يتبيّن أن التوجيه الرباني مصحوب بالموعظة التي تميل القلب إليه، قال البقاعي في سياق تفسيره لآيات حادثة الإفك في صدر سورة النور: "ولما كان هذا كله وعظًا لهم واستصلاحًا، ترجمه بقوله: ﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ﴾[النور: ١٧] أي: يرقق قلوبكم الذي له الكمال كله.. بالتحذير على وجه الاستعطاف، ﴿أَن تَعُودُواْ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾[النور: ١٧] أي: ما دمتم أهلاً لسماع هذا القول، ثم عظّم هذا الوعظ،

(١٩٣) التفسير الكبير (٤/١٧٠)

(١٩٤) أضواء البيان (٣/ ٤١٩)

وألهب سامعه بقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[النور: ١٧] أي: متصفين بالإيمان راسخين فيه فإنكم لا تعودون"(١٩٥).

ومن أمثلة هذا التنوع في مخاطبة ركائز الموعظة في الإنسان خطاب الله سبحانه وتعالى لعائشة وحفصة رضي الله عنهما بقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ الآية. [التحريم ٤ – ٥]، ففي هذا الخطاب مزج بين نداء العقل والعاطفة في زوجتي النبي ﷺ إذ أفشت إحداهما للأخرى حديثًا للنبي ﷺ استأمنها عليه يتعلق بتحريمه شيئًا على نفسه(١٩٦)، كما أنهما رضي الله عنهما تآمرتا معًا على ما يؤدي إلى تبغيضه ﷺ في الدخول على بعض نسائه الأخريات، وهذا كله أمور لا تليق بنساء النبي ﷺ وإنما زينها لهما الشيطان، فاستوجبا بذلك التوبة إلى الله تعالى منها، وهنا يأتي دور الطريقة القرآنية في تحبيب هذه التوبة والإنابة إلى الله تعالى وبيان مدى المخالفة ونتائجها في خطاب واضح لعقلهما و عاطفتهما معًا، فالآيتان تقرران أمورًا ثلاثة:

الأول: الحض على التوبة باعتبارها خيرًا لهما، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾، وقد اختار القاسمي معنى مالت " أي إلى الحق، وهو ما

---

(١٩٥) نظم الدرر (٥/٢٤٥)

(١٩٦) ذكر الواحدي في (أسباب النزول ص: ٣٣٥) عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: "وجدتْ حفصة رسول الله ﷺ مع أم إبراهيم في يوم عائشة، فقالت: لأخبرنّها. فقال رسول الله ﷺ: هي عليّ حرام إن قربتها. فأخبرت عائشة بذلك، فأعلم الله رسول ﷺ ذلك. فعرّف حفصة بعض ما قالت، فقالت: من أخبرك؟ قال: نبأني العليم الخبير. فآلى رسول الله ﷺ من نسائه شهرًا، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ الآية.".

وجب من مجانبة ما يسخط رسوله ﷺ "[١٩٧]، وعلى هذا فهي مخاطبة لعاطفتهما المؤمنة التي تميل إلى الحق، وتندفع إلى التحلل مما يسخط الله سبحانه وتعالى، هذا مع طريقة الالتفات إذ كان حديث القرآن قبل ذلك بضمائر الغيبة، ثم التفت إليهما من الغيبة إلى الخطاب، وهذا مبالغة في المعاتبة[١٩٨]، "فإن المبالغ في العتاب يصيّر المعاتب مطرودًا بعيدًا عن ساحة الحضور، ثم إذا اشتد غضبه توجه إليه وعاتبه بما يريد"[١٩٩]، ولا شك أن هذا استحثاث لعاطفتهما بين الخوف والرجاء والتشوق والإشفاق.

الثاني: الإشارة إلى قدر النبي ﷺ تصغيرًا من شأن تظاهرهما عليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٞ ﴾ فكأن المعنى: أي شأن يكون شأن تظاهركما عليه وهو الذي يؤيده هؤلاء جميعًا وينصرونه فهو خطاب للعقل من ناحية الموازنة بين مظاهرة عليه ومظاهرة له من حيث القوة والغلبة ومخاطبة للعاطفة من حيث ارتباط نفسهما برسول الله ﷺ، وتذكيرهما بعلو شأنه صلوات الله عليه.

الثالث: الإشعار بمدى الخسارة الدنيوية والأخروية الواقعة عليهما من جراء هذا الصنيع في قوله تعالى: ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ﴾ ففيه استنهاض للعقل حين يفكر في مدى الخسارة التي تلحقهما بطلاق النبي ﷺ لهما، وهي خسارة لا يداويها كسب مهما عظم، ثم استحثاث للعاطفة الكامنة فيهما من حبهما لدوام عشرتهما لرسول الله ﷺ، وميلهما النفسي لهذه العشرة واستمرارها، ثم اللفتة القرآنية التي تخاطب عاطفة الغيرة

---

(١٩٧) محاسن التأويل (٢٢٣/١٦)

(١٩٨) التفسير الكبير (٥٧٠/١٠). الكشاف (١٥٨/٦). تفسير البيضاوي (١٠٧٧/٢)

(١٩٩) محاسن التأويل (٢٢٣/١٦)

فيهما بأن الله سبحانه وتعالى سيبدله إن طلقهما من هنّ خير منهما معددًا صفات هذه الخيرية ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ وهي خيرية متعلقة بأخلاق الآخرة، ثم ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ وهي خيرية ناتجة من التكامل والتنوع في هذه الزوجات بحيث لا يحتاج إليهما، وهكذا تجمع هاتان الآيتان بين نداء العقل والعاطفة إلى المصالح الدنيوية والأخروية فالعلاقة بينهما علاقة استئناف وتنويع.

وهذه الأساليب المتنوعة التي سبق بيانها والتعرف على طريقة القرآن الكريم فيها كان لها أثرها وثمرتها في واقع الصحابة الكرام؛ فمن ثمراتها أنها كانت أدعى إلى الاستجابة من المؤمنين لأنها تغمر الكيان الإنساني بالموعظة، وقد كانت ثمار هذه الأساليب الربانية في توجيه الصحابة الكرام ظاهرة في حسن اتباعهم وتسابقهم في أبواب الخير ومسارعتهم إلى التوبة والإنابة والتخلص من الأخطاء والاندفاع في ميادين الطاعات، والاستجابة لله سبحانه تعالى ولرسوله ﷺ حتى رقيت بهم أمة الإسلام ودخل الناس على أيديهم في دين الله أفواجًا، وفُتحت بهم البلاد، واهتدى بهم العباد، فرضي الله عنهم وجزى عنهم نبيهم خير ما جزى نبيًا عن أمته.

الخاتمة

أحمد الله تعالى على أن وفقني لإعداد بحث قرآني الموضوع، يُعنى بأفضل أجيال أمتنا جيلِ الصحابة الكرام رضوان الله تعالى عليهم، تتبعت فيه التوجيهات القرآنية الكريمة التي قصدتْهُم أولاً، وحرصت على بيان آثارها الإيجابية في بناء جيل رائد فريد الإعداد والتكوين. ولقد خلصت من البحث إلى نتائج أراها مهمة وضرورية أبرزها:

١ -أهمية إجلال الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وإكرامهم، والذبّ عنهم، وصيانة مكانتهم، ذلك أن التوجيهات الربانية لهم كونت منهم قامات شامخة راسخة الإيمان قَدِرت على تحمل الأمانة، ثم على إيصالها بأمانة وإتقان، فلهم الفضل بذلك بعد رسول الله ﷺ.

٢ -ضرورة إبراز تلك التوجيهات الخاصة ومن ثَمّ التأدب بها، لأنها كما أثّرت إيجابًا في الصحابة رضوان الله عليهم؛ فسيكون لها ذات الأثر أو قريبًا منه على كل مؤمن حريص على التأسي بهم والسير على منوالهم.

٣ -التوجيهات التي قصد بها الصحابة أولاً تنبهنا إلى الجانب الخطّاء في بني آدم، بِحُكْم البشرية من جهة، وانتفاء العصمة عنهم من جهة أخرى، ومع ذلك نراهم طبقوا الشريعة بحذافيرها حتى بعد وفاة النبي ﷺ وبخاصة إبان الخلافة الراشدة، الأمر الذي يبرهن – بما لا يدع مجالاً للشك - على أن التطبيق الكامل للشريعة ممكن إذا صدقت الإرادة وحَسُن التوجّه، وهذا أحد مكامن صلاح الشريعة لكل زمان ومكان.

وأود الإشارة هنا إلى أن الإيجاز كان رائد هذه الدراسة، لذلك أشعر بأن كل جزئية من جزئياتها يحتاج إلى دراسة مفردة، مثل التوجيه السياسي، وخصائص العتاب القرآني للصحابة، وآليات الأمن الاجتماعي. فلعل الله يهيئ من يقوم بتغطية الجوانب المختلفة التي أوجزتها هذه الدراسة.

والله المستعان والموفق والهادي.

المصادر والمراجع

[١] أسباب النزول للواحدي، تحقيق خيري سعيد، المكتبة التوفيقية، القاهرة ٢٠٠٣م.

[٢] الأشباه والنظائر لتاج الدين السبكي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

[٣] أضواء البيان للشنقيطي، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط١، ١٤٢٦هـ.

[٤] إعلام الموقعين لابن القيم، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٠٧هـ.

[٥] أمالي اليزيدي محمد بن العباس (ت ٣١٠ هـ)، عالم الكتب، بيروت، ١٣٦٩هـ.

[٦] الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير، تحقيق أحمد محمد شاكر، مكتبة المعارف، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

[٧] البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ.

[٨] البيان والتبيين للجاحظ، دار وكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

[٩] التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

[١٠] تحفة الأحوذي للمباركفورى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

[١١] التسهيل لابن جزي، تحقيق عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم، بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ.

[١٢] تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق أسعد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط٣، ١٤١٩ هـ.

[١٣] تفسير ابن عرفة، تحقيق حسين المناعي، مركز البحوث بالكلية الزيتونية، تونس، ط١، ١٩٨٦م.
[١٤] تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٤١١هـ.
[١٥] تفسير البيضاوي (أنوار التنزيل)، تحقيق محمد المرعشلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.
[١٦] تفسير الثعالبي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
[١٧] تفسير الخازن (لباب التأويل في معاني التنزيل) ضبط عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.
[١٨] تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق حسين زهران، دار الفكر، بيروت، ١٤١٢هـ.
[١٩] تفسير القشيري (لطائف الإشارات) تحقيق د. إبراهيم بسيوني، ط٤، الهيئة المصرية العامة، ٢٠٠٧م.
[٢٠] التفسير الكبير للفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٤، ١٤٢٢هـ.
[٢١] تفسير المراغي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
[٢٢] تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، ط٢.
[٢٣] تفسير محمود شلتوت، دار العلم، القاهرة، ط٤، ١٤٢١هـ.
[٢٤] تهذيب اللغة للأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.
[٢٥] تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمن بن سعدي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

[٢٦] جامع البيان (تفسير الطبري)، تحقيق د. عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، ط١، ١٤٢٢هـ.

[٢٧] الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٥، ١٤٢٣هـ.

[٢٨] الحجة في علل القراءات لأبي علي الفارسي، تحقيق عادل عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ.

[٢٩] الحسبة في الإسلام لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق سيد أبو سعدة، مكتبة دار الأرقم، الكويت، ط١، ١٤٠٣هـ.

[٣٠] الدرر المنثور للسيوطي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١٤٢١ه.

[٣١] ذيل طبقات الحنابلة لابن رجل الحنبلي، تحقيق د. عبد الرحمن العثيمين، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤٢٥هـ.

[٣٢] روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

[٣٣] زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، المكتب الإسلامي، ط٤، ١٤٠٧هـ.

[٣٤] السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٤٠٠هـ.

[٣٥] السراج المنير للشربيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

[٣٦] سنن أبي داود السجستاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

[٣٧] سنن الترمذي، تحقيق مجموعة من العلماء، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٥هـ.

[٣٨] السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٤ هـ.
[٣٩] السيرة النبوية لابن كثير، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٣٩٥ هـ.
[٤٠] شرح النووي على مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢ هـ.
[٤١] شرح نخبة الفكر لأبي الحسن القاري، تحقيق محمد نزار وهيثم نزار، دار الأرقم، بيروت، لبنان.
[٤٢] صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.
[٤٣] صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
[٤٤] صفوة التفاسير للصابوني، دار طيبة.
[٤٥] طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية، تحقيق السيد محيي الدين الخطيب، المطبعة السلفية، القاهرة، ط٢، ١٣٩٤هـ.
[٤٦] العقيدة في الله للدكتور عمر الأشقر، ط١، ١٣٩٩هـ، مكتبة الفلاح، الكويت.
[٤٧] علوم الحديث لابن الصلاح، تحقيق د. نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق.
[٤٨] عمدة القاري لبدر الدين العيني، مطبعة الحلبي، مصر، ط١، ١٣٩٢هـ.
[٤٩] الفتاوى لابن تيمية، جمع عبد الرحمن العاصمي، طبعة الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين.
[٥٠] فتح الباري لابن حجر العسقلاني، تحقيق عبد العزيز بن باز، دار الفكر.
[٥١] الفروق للقرافي، عالم الكتب، بيروت.
[٥٢] في ظلال القرآن لسيد قطب، در الشروق، ط١٧، ١٤١٢هـ.

[٥٣] القاموس المحيط للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٤١٩هـ.
[٥٤] الكشاف للزمخشري، دار المعرفة، بيروت، ط١، ١٤٢٣هـ.
[٥٥] لباب النقول للسيوطي، عناية أحمد عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت.
[٥٦] اللباب في علوم الكتاب لابن عادل الحنبلي، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
[٥٧] محاسن التأويل لمحمد جمال القاسمي، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٣٩٨هـ.
[٥٨] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي، تحقيق المجلس العلمي بفاس، طبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٤٠١هـ.
[٥٩] المستدرك للحاكم، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١ هـ.
[٦٠] المعارف لابن قتيبة، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط١، ١٩٩٢م.
[٦١] معالم التنزيل (تفسير البغوي)، تحقيق خالد عبد الرحمن، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤١٣هـ.
[٦٢] من أسرار التعبير القرآني للدكتور محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤١٦هـ.
[٦٣] مناهج البحث العلمي للدكتور عبد الرحمن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨م.
[٦٤] مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة. ط٣.

[٦٥] المنتخب في تفسير القرآن، وزارة الأوقاف – المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط٢٠، ١٤٢٣هـ.

[٦٦] منهج التربية الإسلامية، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٧، ١٤٠٣هـ.

[٦٧] موطأ الإمام مالك بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

[٦٨] نخبة الفكر لابن حجر (ملحق بكتاب سبل السلام)، تحقيق عصام الصبابطي وعماد السيد، دار الحديث، القاهرة، ط٥، ١٤١٨هـ.

[٦٩] نشأة الفكر الفلسفي عند المسلمين للدكتور علي سامي النشار، دار المعارف، بيروت، ط٣، ١٩٦٥م.

[٧٠] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

The Methodology of the Holy Qur'an in Guiding and Conducting the Companions of the Prophet (PBUH)

Dr. Mushref bin Ahmad Jama'n Al-Zahrani
Associate Professor
Sattam Bin Abdulaziz University
College of Education
Islamic Studies - Qur'anic sciences

Abstract. This paper ،entitled "The Methodology of the Holy Qur'an in Guiding and Conducting the Companions of the Prophet (PBUH) ،" deals with goodness all round. The Holy Qur'an is the ultimate book of guidance and enlightenment ،an ever-renewing source of knowledge and an inexhaustible well of wisdom; and the blessed Companions of the Prophet (pbuh) are the vanguard pioneers of the Islamic nation and the jewels in its crown. I have endeavoured to discover the very special position allocated to these blessed Companions by decoding and delineating the Qur'anic methodology in nurturing and cultivating them. Above all else ،I wanted to examine the end product of the Qur'anic education ،manifest in them and in fellow Muslims who follow their good example.

The study falls into three comprehensive sections. The first ،"The Holy Qur'an's Interest in the Prophet's Companions ،" deals with the explicit references to the sublime status accorded to them in the Holy Qur'an ،God's own commendation of the Companions and His command to the Prophet (pbuh) to care for and look after them. This section also hints at the generic and specific instructions and guidelines given to the Companions in various verses of the Holy Qur'an.

The second section ،"The Most Important Qur'anic Guidelines to the Companions ،" details the ideological ، fikhi ،legislative ،social ،ethical ،political and military directives given to them by God almighty.

Finally ،the third section ،entitled "The Qur'anic Ways and Means of Guiding the Companions ،" exemplifies these methodologies in instructing them and pointing out their errors ،admonishing them ،promoting and encouraging their good doing ،making the evil doing of the unbelievers and the hypocrites detestable and loathsome in their eyes ،and addressing both the Companions' minds and feelings.

The conclusion includes a summary of my views on the subject and the most important findings I have reached- namely:

1. The overriding significance of honouring ،revering and defending the venerable Companions (Gbt) of the Prophet (pbuh). The Divine Guidance had turned them into towering figures and firm believers who bravely carried out the Islamic mission and upheld the Islamic Faith entrusted to them then adeptly and honestly conveyed them to others. After the Prophet (pbuh) ،thanks are first and foremost due to them in furthering the cause of Islam.
2. The need to highlight and embrace the specific Divine guidelines given the Companions ،precisely because they had positively affected them and will consequently have the same ،or at least similar ،effects on every believer who cares to follow their good example.
3. The Divine guidelines to the Companions make us amply aware of man's erring nature. Although the Companions themselves were not infallible ،however ،they carried out the Islamic Faith and Sharia fully and dutifully ،even after the death of the Prophet (pbuh) ،and especially during the Rightly Guided Caliphate. Beyond a shadow of doubt ،this proves that a thorough and complete application of the Islamic Sharia is possible when enough will ،determination and good guidance are at hand. After all ،this is one aspect of the miraculous applicability of the Islamic Sharia everywhere and at all times.

مجلة العلوم الشرعية
جامعة القصيم، المجلد (٨)، العدد (٤)، ص ص ١٤٠١-١٣٦، (شوال ١٤٣٦هـ/يوليو ٢٠١٥م)

حديث عبد الله بن عباس في قصة خُلْع امرأة ثابت بن قيس
دراسة حديثيّة تحليْليّة

د. رائد بن حمد بن خالد السليم
الأستاذ المشارك بقسم السنة وعلومها
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة القصيم

ملخص البحث. يعتني البحث بدراسة قصة مشهورة في السنة النبوية وهي قصة ثابت بن قيس مع امرأته حين طلبت مفارقته، وهذه القصة مليئة بالفوائد التشريعية، والآداب الأسرية، وفيها إبراز واضح لحفظ الإسلام لمكانة المرأة، كما تبرز القصة جانب الإنصاف والعدالة في الإسلام بما يتعلق بأحكام الأسرة، وحدود العلاقة الزوجية